كنوز ودرر من سيرة خير البشر

احمد يوسف السفياني

اهداء

أهدي هذا الكتاب :

- إلى كل محب لرسول الله صلى الله عليه وسلم
- إلى كل مسلم صمم على المضي قدما في خدمة الإسلام وأهله
- إلى كل من قرر دراسة وتعلم السيرة النبوية ونشرها بين الناس

المحتويات

مقدمة ٥
عظم مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وكبير مقامه بين الخلق ٧
حال أمة الإسلام في الوقت الحاضر ٩
تفكر قليلا ١٢
صفات خلقية أهلت العرب لحمل رسالة الإسلام ١٦
[أهم مزايا السيرة النبوية] ١٩
امتنان الله على الثقلين برسالته صلى الله عليه وسلم ٢٣
اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعليم ٢٥
رواية البخاري لقصة طعام الخندق ٢٨
هرقل يسأل وأبو سفيان يجيب ٣٠
هرقل يبين حقيقة نبوة المصطفى من إجابات أبي سفيان ٣٢
نص رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لهرقل ٣٣
حديث خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر واستضافة أبي الهيثم لهم ٣٦
التهييج والتحريض ضد المسلمين ٣٧
استغلال كل الطاقات لحرب الإسلام ٤٠
استغلال الإمكانيات الفردية وانتقائها ٤١
استخدام النساء لبعث الحمية في القلوب ٤٣
أثر عمل المنافقين بين صفوف المسلمين ٤٥
حقيقة الولاء والبراء بين الكفار والمنافقين ٤٩
غزوة أحد درس التضحية والثبات ٥٤
دروس السيرة معين لا ينضب ٥٥
بذل أهل الباطل لأموالهم ٥٧
تضحية أهل الباطل بأرواحهم ٥٩
صور من ثبات وتضحية أهل الإيمان ٦١
أبو دجانة وعصابة الموت ٦١
أسد الله حمزة ٦٢
قمة من قمم الثبات النبوي ٦٣
أنس بن النضر مثال الإقدام والثبات ٦٥
أمثلة وصور متفرقة للثبات ٦٧
حنظلة الغسيل وشوقه إلى الجهاد ٦٨
التضحية والثبات درب السلف الأوائل ٧٠
نزول الوحي والأمر بالدعوة ٧٤

مبادرة أبي بكر بالإسلام ٧٥
مكايد قريش ضد الدعوة ٧٦
عرض الدعوة والإذن بالهجرة إلى المدينة ٧٧
استقبال أهل المدينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٨
التمكين للدين وموت الرسول صلى الله عليه وسلم ٨٠
غزوة بدر ٨٢
استشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وبدء المعركة ٨٤
انتصار المسلمين في المعركة ٨٥
أخذ العبر والدروس من معركة بدر ٨٦
أنواع العذاب الذي صبر عليه المصطفى وأصحابه ٨٧
عناية الله تعالى بأوليائه الصالحين ٩٣
الأخذ بالأسباب ٩٥
إنزال الله الطمأنينة والسكينة على قلب المؤمن في الشدائد ٩٦
اتخاذ الصاحب الطيب ٩٩
الدعوة إلى الله بالأقوال والأفعال ١٠٠
لابد للنصر من بذل وتضحية ١٠٢
حسن اختيار الله لأصحاب رسول الله ١٠٣
الهجرة سنة الأنبياء ١٠٤
وجوب الهجرة لمن ليس متمكنا من إقامة دينه ١٠٧
استماعه صلى الله عليه وسلم للشعر واستزادته منه ١١١
مدح بعض الشعراء للنبي صلى الله عليه وسلم ١١٤
تجمع الأحزاب لحصار الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ١١٧
قصة ليلة الأحزاب ١٢٠
منازلة اليهود من حصونهم ١٢٣
قدوم حليمة إلى مكة تلتمس رضيعا ١٢٥
حلول البركة بحليمة وأسرتها ١٢٨
حادثة شق الصدر ١٢٩
دروس من رعي الأغنام في حياة الأنبياء ١٣٢
فتح مكة ١٣٣
نقض قريش لصلح الحديبية ١٣٥
اعتراف قريش بالخطأ وإرسال أبي سفيان إلى المدينة ١٣٧
قصة حاطب ورسالته إلى مكة ١٣٨
من لطيف ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق مكة ١٤١
وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى مشارف مكة ١٤٢
خروج العباس إلى حدود مكة وإسلام أبي سفيان ١٤٣
مرور الجيش على أبي سفيان ورجوعه إلى قومه ١٤٤

جيش الفتح بقيادة المصطفى يدخل مكة ١٤٦
النبي صلى الله عليه وسلم يصدر العفو العام عن قريش ١٤٧
بعض ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني ١٤٩
بلال يؤذن للصلاة على ظهر الكعبة ١٤٩
حنين الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم ١٥٢

مقدمة

إنّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ - تعالى- من شُرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هادِيَ له، وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه.

((يا أيها الذين امنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون))

((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا))

((يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا – يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله فقد فاز فوزا عظيما))

أما بعد:

إخواني الأعزاء في الوطن العربي وفي كل العالم أريد أن أخبركم أني أحبكم في الله وأهديكم هذا الكتاب الذي يتحدث عن سيرة خير بشر وجد على هذه المعمورة إنه محمد رسول الله فداه نفسي وكلنا يعلم كثرة الكتب التي تتحدث عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن المهم جدا الإطلاع على هذه الكتب وقرائتها لتعلم سيرة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذا الكتاب قمنا بجمع المواضيع المفيدة والشيقة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدة مصادر كالكتب والدروس والمحاضرات لعلماء متنوعين وقد تجاهلنا ترتيب هذه المواضيع ترتيبا زمنيا كما هي عادة أكثر كتب السيرة لأنك تستطيع قرائتها بدون مراعاة الترتيب فكل موضوع مستقل بذاته عن بقية المواضيع.

ولا تنسوا نشر هذا الكتاب بين الأهل والأصدقاء لما فيه من فوائد ثمينة ودرر نفيسة فعند نشر الخير بين المسلمين تحصل على الأجر العظيم.

عظم مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وكبير مقامه بين الخلق

فها نحن اليوم مع موضوع من أهم الموضوعات في حياة المسلمين، بل في حياة الأرض بأكملها، نحن مع سيرة رجل هو أعظم رجل خلقه الله عز وجل منذ خلق آدم وإلى يوم القيامة.

الناس عادة يتفوقون في مجال ويتأخرون في آخر، لكن هذا الرجل تفوق في كل مجال، تفوق في عبادته، في معاملاته، في شجاعته، في كرمه، في حلمه، في زهده، في حكمته، في ذكائه، في تواضعه، في كل شيء، إن هذا الرجل بحق قد سبق غيره! فمع سيرة الإنسان الذي خاطبه الله عز وجل وقال له: {وإنك لعلى خلق عظيم}

[القلم:٤]

.

بل قد أقسم الله جل وعلا بحياة هذا الرجل فقال: {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون}

[الحجر:٧٢]

.

مع سيرة الرجل الذي لن يحاسب الله عز وجل الخلائق يوم القيامة إلا عندما يشفع لهم، وكل نبي في الموقف لن يشفع حتى لأتباعه المؤمنين به إلا بعد أن يشفع هذا الرجل.

مع سيرة الرجل الذي لن ندخل الجنة إلا خلفه، ولن نروى يوم القيامة إلا من حوضه وكوثره، وهذا متوقف على معرفتنا بسيرته ونهجه، واتباعنا له فيهما، فإن صنعنا ذلك كانت لنا النجاة في الدنيا والآخرة، وإن جهلنا طريقته أو خالفناها قيل لنا: سحقا سحقا.

نحن أمام سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الماحي الذي محا الله عز وجل به الكفر، وأول من يبعث من الخلائق يوم القيامة، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وصاحب المقام المحمود والحوض المورود صلى الله عليه وسلم.

أمام سيرة الرجل الذي فتحت له أبواب السماء ليخترقها بجسده إلى ما بعدها، لما صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل في رحلة المعراج إلى السماء وطرق الباب أجاب الملك فقال: (من؟ قال: جبريل.

قال: ومن معك؟ قال: محمد.

قال: أو أرسل إليه؟ قال: نعم) ففتح باب السماء، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكان لم يدخله بشر قبل ذلك وهو حي.

نعم، هذا هو الرجل الذي وصل إلى مكان لم يصل إليه بشر، ولم يتجاوزه حتى جبريل الملك العظيم، ويصل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إنه الرجل الذي شاهد الجنة والنار بعينه لا بعقله.

ونحن هنا لا نقارن عظمة هذا الرجل صلى الله عليه وسلم بعظمة بوذا وكونفوشيوس وهتلر ولينين وستالين كما فعل صاحب كتاب الخالدون المائة، وإن كان قد جعل أعظمهم محمدا، والعجيب أنك تجد الناس فرحين بذلك الكتاب.

إن مقام هذا الرجل لا يسمح إلا بأن نضعه في مصاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ في رتبة أعلى من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وكل أنبياء الله عز وجل عليهم الصلاة والسلام أجمعين، في مقام ضخم جدا نقارنه بالملائكة أجمعين، بملك الأرزاق، بملك البحار، بملك الجبال، بحملة العرش، بل وبجبريل عليه السلام، جبريل لما وصل إلى سدرة المنتهى لم يستطع أن يتقدم، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو تقدمت خطوة لاحترقت)، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مكنه الله عز وجل أن يتقدم، فتقدم للقاء الله عز وجل.

إن عظم مقام هذا الرجل جعل له ذكرا خالدا، وعلى قدر هذه العظمة يجب أن يكون اهتمامنا بسيرته وحياته، وبكل دقيقة مرت من حياته الشريفة صلى الله عليه وسلم.

حال أمة الإسلام في الوقت الحاضر

إخواني في الله! إن دراسة السيرة النبوية مهمة في كل زمان، وهي ولا شك في زماننا أهم، فحال الأمة وما أصيبت به من تصدع وتفكك وانهيار في أجزاء، وانحلال في أجزاء أخرى، ما هو إلا أزمة خطيرة تمر بها أمة الإسلام، ونجد تباينا كبيرا بين ما وصف الله عز وجل به هذه الأمة في كتابه الكريم وبين حال الأمة الواقع الذي نراه بأعيننا، فالله عز وجل يقول في كتابه مثلا: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}

[آل عمران: ١١٠]

.

ويقول: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا}

[البقرة:١٤٣]

.

ثم تأتي بعد ذلك لتنظر إلى واقع المسلمين وحالهم، فتجد التأخر في كل المجالات التي يجب أن تنافس أمتنا غيرها فيه، فمثلا على الصعيد العسكري انظر إلى أي دولة إسلامية، وضع في الحسبان أن على مساحة الأمة الإسلامية أكثر من ستين دولة، تجد أن معظم الدول الإسلامية تسليحها أقل من تسليح الدول المحاربة لها.

ولأول مرة في التاريخ نسمع عن دولة تؤمر بتدمير أسلحتها بنفسها وإلا عوقبت، والدول المحيطة من دول العرب والمسلمين اعتقدت أن هذا هو الطريق الأمثل للنجاة، ثم تتتابع إليها الخطابات الحادة، والكلمات اللاذعة: ما زال هناك سلاح لم يدمر، ما زال هناك سلاح مداه طويل، ما زال هناك سلاح عند عدوك مثله ويصبح الأصل أن تدمر الدولة أسلحتها بنفسها، وإلا عوقبت.

لأول مرة في التاريخ نسمع عن دول توقع على نفسها أنها لا تنتج سلاحا يمتلكه عدوها، بل ونفتخر بهذا الأمر، ويعلن بصيغة الفخر، وأننا نشارك في هذه المعاهدات، مع أن معظم دول الأرض عندها نفس السلاح، وتصبح منتهى أحلام المسلمين أن ينزع السلاح من إسرائيل فقط، مع أنهم يعلمون أن فرنسا وإنجلترا وأمريكا وروسيا وحتى كوريا تمتلك نفس السلاح، لكن لا ينزع السلاح من هؤلاء.

وما هذا في الحقيقة إلا تأخر عسكري رهيب لم يسبق في تاريخ المسلمين.

أما الجانب الاقتصادي فإن التأخر فيه غير مفهوم مع إمكانيات الأمة الضخمة، فأمة الإسلام مشتهرة بالبترول والمعادن والكميات الهائلة من منتجات المواد الخام، ومن سيطرتها على ممرات بحرية، ولا أحد يعرف ما سبب هذا التخلف الضخم مع كل هذه الأمور؟! كذلك يوجد تأخر علمي، بل فجوة هائلة بيننا وبين غيرنا تقدر بمئات السنين، لا أقول بعشرات السنين أو بآحاد السنين.

تأخر حتى في الوحدة، فلا تجد دولتين مسلمتين إلا وبينهما صراع ونزاع على الحدود.

وهذا أمر يشق كثيرا على النفس.

حتى في المجال الأخلاقي، نحن دائما نقول: إن الحضارة ليست هي الأشياء المادية فقط، ليست السلاح أو المعمار أو الأموال، بل الحضارة أشياء كثيرة مجتمعة مع بعضها، ومن أهمها الأخلاق، ثم انظر إلى الأمور الأخلاقية في العالم الإسلامي، لا تسأل عن كيفية التعامل بين الجيران في البلاد الإسلامية، أو كيف يعامل الموظفون الجمهور، أو ما هي أخبار الرشوة والفساد، وأخبار الإعلام وشاشات الأفلام، والإباحية المفرطة في الأغاني والإعلانات والشوارع وفي كل مكان، حتى في أماكن العلم كالجامعات والمدارس نرى أمورا كنا نتخيل أنها لا توجد إلا في ملهى ليلي، ثم وجدناها في الجامعة، في مكان العلم، في المكان الذي يفترض أن تركز الناس فيه أكثر تركيز على رفعة هذه الأمة.

تفكر قليلا

إذا قمنا بالتفكير قليلا في سيرة حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم نجد شيء لا نجده في أي سيرة لأي مخلوق على هذه الأرض، كيف ذلك؟!

إذا كنت زوجا فنبي الله خير قدوة لك في تعاملك مع زوجتك فعند تعلمك لسيرته صلى الله عليه وسلم تجد كيف كان يتعامل مع زوجاته وتجد من أخلاقه العالية في ذلك ما يكفيك لتكون زوجا صالحا، وكذلك إن كنت أبا أو معلما أو قائدا أو داعيا إلى الله تعالى فلك في سيرة حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم كل الكنوز والدرر التي ترفع منك وتجعلك المسلم الناجح في أمور الدنيا والاخرة.

وما قصدته أن سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تتميز بكل هذه الميزات التي لا يمكنك أن تجدها مجتمعه في سيرة رجل غيره.

ومن خلال هذه السيرة العظيمة لأفضل الخلق، نستطيع الحديث عن حال المسلمين، فإذا نظرنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في ولادته وفي صغره -وما كان صغيرا قط- نرى ونتعلم كيف نربي أولادنا، وسوف نتحدث عن تربية الأولاد في الإسلام.

وعندما يصل الرسول إلى سن الشباب، فسوف نخرج أحاديث إلى الشباب في زمن ارتكبت فيه الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونسأل الله العصمة لنا ولشبابنا ولأبنائنا ولصغارنا وكبارنا.

ثم نتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم معلما، فنتحدث عن صفات المعلم، وعن صفات المتعلم وعن فضيلة العلم.

نتحدث عن الرسول داعية إلى الله، فنتعلم كيف يدعو الإنسان إلى الله عز وجل، ونتحدث عن الرسول كأب؛ لنرى كيف كان أبا في بيته، نتحدث عنه كزوج؛ لنتوقف عند حقوق الزوج على زوجته وحقوق الزوجة على زوجها، وهذه أشياء مهمة.

ونتحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قائدا محنكا وسياسيا بارعا ومفاوضا عظيما؛ لنتحدث عن موقف المفاوضات والمعاهدات في الإسلام، ونتحدث عن الغزوات لنرى الرسول قائدا عسكريا عظيما لا يشق له غبار وكيف كان يخطط، وكيف كان ينظم مواقف القتال ونعرف موقف الإسلام من القتال.

نتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فقير كيف كان يتعامل وهو غني، وعندما دخل الناس في دين الله أفواجا، ونتحدث عنه في حالة اليسر وفي حالة العسر، ونتحدث مجملا عن قول الله عز وجل فيه: {وإنك لعلى خلق عظيم}

[القلم:٤]

.

ونتحدث عنه كيف كان يعامل أعداءه، وكيف كان يعامل أهل الذمة، كيف كان يعامل المنافقين الذين كان يعرفهم واحدا واحدا، ونتحدث عنه حليما يحلم على الناس، فقد وسع صدره العالم كله فدخل الناس في دين الله أفواجا محبة في رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتداء به.

نتحدث عنه عند وفاته وكيف صبر صحابته على هذه الفاجعة الكبيرة التي نحن في خضم حياتنا لا نذكرها إلا قليلا، فنتحدث عن الصحابة كيف كانوا تلاميذ نجباء لأشرف أستاذ عرفته البشرية صلى الله عليه وسلم.

هذا مجمل عناوين الحديث عن السيرة العطرة، وأدعو الله عز وجل إن كنا من أهل الدنيا أن يعيننا على شرحها وتوضيحها والخروج بالدروس المستفادة منها.

فاللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه يا أكرم الأكرمين.

أثره صلى الله عليه وسلم في بناء الجيل الفريد الذي غير مجرى التاريخ

الأمر الثالث: أن هناك جيلا رائعا عظيما عاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا الجيل العظيم خلق أحداثا لا نهاية لها، تعجز عشرات المجلدات عن حملها.

وهكذا الإنسان العظيم إذا عاش في مجتمع من الناس ليست لهم قيمة يضيع بينهم، لكن الرجل العظيم هو من يعيش في وسط عظماء يتفاعلون معه بصورة إيجابية في كل لحظة من لحظات الحياة، يتحركون بحمية،

يفكرون بجدية، يتناقشون بفهم ووعي وإدراك، يفكرون بذكاء، وكل واحد من هؤلاء الصحابة قصة ضخمة في حد ذاته، فهذا أبو بكر مثلا يحتاج إلى عشرات المجلدات لوصف مواقفه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذلك عمر وعثمان وعلي وعائشة وحفصة وصفية، وكل المهاجرين والأنصار، آلاف من الكتب والمراجع كتبت عن هؤلاء الصحابة، وكل هذا في النهاية هو جزء من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حياة النبي صلى الله عليه وسلم كلها أحداث عظيمة

الأمر الرابع: الأحداث العظيمة التي تحدث في حياة الناس، كلما عظم الحدث احتاج إلى دراسة وتحليل ووصف وشرح، أحيانا تمر على حياة الناس عشرات السنين دون حدث عظيم يؤثر في حياة مجموع البشر، لكن الأحداث المؤثرة تحتاج إلى تفصيل ودراسة، ممكن تجد دولة تعيش عشرات السنين دون أن تجد في حياتها حدثا ضخما مؤثرا.

فمثلا عندما حدث في مصر حرب رمضان المباركة، نسأل الله عز وجل أن يعيد للمسلمين أمثالها، كم جرى لها من تحليل ودراسة رغم أنها وقعت من عقود، وإلى الآن نكتب عنها، وسيظل يكتب عنها المحللون والمؤرخون؛ لأنها حدث كبير.

كيف وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم كلها أحداث ووقائع؟ ففي سنة (٩٢) حدثت موقعة حربية ضخمة هي غزوة بدر، وفي (٣هـ) غزوة أحد وبنو قينقاع، وفي (٤هـ) بنو النضير، وفي (٥هـ) الأحزاب وبنو قريظة وبنو

المصطلق وهكذا هي حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانظر كم نحتاج إلى تحاليل ودراسات.

صفات خلقية أهلت العرب لحمل رسالة الإسلام

الحكمة السادسة من نزول الرسالة في جزيرة العرب مع كل ما سبق من أجواء أخلاقية وأمراض اجتماعية في جزيرة العرب إلا أن المجتمع كان يتصف بصفات أصلية في فطرة ساكني هذه المنطقة، تساعد على حمل الدعوة ونشر الإسلام، نعم، كان عندهم ظلم وقهر لكن، كان عندهم صفات جبلوا عليها، وهذه الصفات لا بد أن تكون في كل داعية، ولولا هذه الصفات لما استطاعوا حمل رسالة الإسلام.

من هذه الصفات على سبيل المثال: الصدق، وهي أهم صفة مميزة للداعية، فالرسول صلى الله عليه وسلم أهم صفة كانت مميزة له الصدق، فهو الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، وأكثر من ساعد الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، اسمه: الصديق، فصفة الصدق صفة أساسية في الذي يحمل هم هذا الدين.

وتفكر معي ماذا لو أنزلت الرسالة في بيئة من البيئات الكذب منتشر فيها؟ انظروا إلى فعل اليهود والنصارى بدينهم، يقول الله عنهم: {وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون}

[آل عمران:٧٨]

والإسلام يحول الكذاب إلى صادق، لكن ليس بالصورة التي فطر فيها الإنسان على الصدق.

فقد كان العرب يأنفون من الكذب، فيأتي الإسلام بعد ذلك ليحسن ويجمل ويعظم قيمة الصدق عند هؤلاء الصادقين، فيربط الأمر بالجنة، والصديقية عند الله سبحانه وتعالى.

فهذا أبو سفيان لما كان يتحدث مع هرقل عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا بعد صلح الحديبية، وكان لا يزال مشركا يحارب الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك قال أبو سفيان: كنت أنا أقربهم نسبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال هرقل: أدنوه مني -أي قربوه- ثم قال: قربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن النبي فإن كذبني فكذبوه، وبدأ يسأله ووضع أصحاب أبي سفيان وراءه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء أن يؤثروا علي كذبا لكذبت عمدا.

هو يكرهه جدا، لكن يستحي أن يكذب؛ لأنه رذيلة.

وفي لفظ آخر يقول: فوالله لو كذبت ما ردوا علي -لأنه سيد القوم- ولكني كنت امرأ أتكرم عن الكذب.

وكان الحوار الذي دار بينه وبين هرقل حوارا عجيبا، كأنه داعية يتكلم عن الإسلام، ويدعو إليه.

يقول له هرقل: كيف نسبه فيكم؟ يقول: هو فينا ذو نسب.

فيقول له: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول؟ قلت: لا، قال هرقل: فهل يغدر؟ قلت: لا.

ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، يعني: قوله: نحن في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، لاحتمال أن يغدر بنا، لكن هو قال: لم يغدر قبل ذلك، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا -مثل بدر- وننال منه -مثل أحد-.

قال: بماذا يأمركم؟ قال: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة.

لم يكذب، وكل الذي قاله الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته لخصه لـ هرقل؛ لأنه يكره الكذب.

فلما تنزل الرسالة على أناس بهذا التكريم لصفة الصدق سوف يتحركون بالرسالة بأمانة ويقولونها للناس مثلما نزلت عليهم بالضبط.

إذا: هذه كانت صفة هامة في أهل الجزيرة العربية، ولم تكن موجودة في أهل الأرض في ذلك الزمن.

الصفة الثانية العظيمة في العرب لما نزلت فيهم الرسالة: صفة الكرم، وهي صفة أصيلة في العرب، كان حاتم الطائي يضرب به المثل في الكرم، وكان يعتق العبد إذا جاءه بضيف؛ لأنه يحب الكرم.

ومن العرب من لم تكن له إلا ناقة واحدة فيأتي له ضيف فيذبحها له كرما منه، لدرجة أن العرب سموا العنب: كرما؛ لأنهم يصنعون منه الخمر، ولما يشرب الرجل منهم الخمر ينفق بلا حساب، فمن حبهم الكرم سموا الخمر التي تؤدي إلى الإنفاق بدون حساب: كرما.

فجاء الإسلام ليهذب هذه الصفة النبيلة، فلا يصل الأمر إلى حد الإسراف والسفه، وأيضا لا يصل إلى حب الخمر؛ لأنها تدفع إلى الكرم، لكن حرم الله عز وجل الخمر، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسمية العنب بالكرم، وقال: (إنما الكرم المؤمن).

تخيل أن الإسلام نزل ليقنن الكرم ويدخله في

[أهم مزايا السيرة النبوية]

- [أولا التوثيق المعتمد على الرواية المسندة المتصلة]

أهم مزايا السيرة النبوية أولا: التوثيق المعتمد على الرواية المسندة المتصلة عن طريق الثقات الأثبات الذين شاركوا الرسول صلى الله عليه وسلم فترات حياته ثم التابعين الذين عاصروا الصحابة وسمعوا منهم وحملوا

عنهم. فالصحابة عاشوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وشاركوا في صياغة سيرته ثم امتدت حياة الكثيرين منهم لفترة طويلة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فعاشوا مع التابعين فترة طويلة، فلو علمنا أن من الصحابة من امتدت به الحياة إلى سنة مائة أو بعدها بقليل من الهجرة فقد توفى أبو الطفيل عامر بن واثلة عام ١٠٠هـ ومحمود بن الربيع ٩٩ هـ وعبد الله بن بسر المازني ٩٦ هـ وأنس بن مالك ٩٣ هـ رضى الله عنهم. وقد علمنا أن تدوين السنة رسميا قد بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكانت وفاته سنة (١٠١) هـ إذا علمنا ذلك كله ثبت لنا أن تتابع التلقي للسنة والسيرة لم ينقطع قط، ولم تكن هناك فترة فاصلة بين التدوين والتلقي عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الصحابة ثم التابعين.

- [ثانيا التدوين المبكر للسيرة النبوية]

ثانيا: التدوين المبكر للسيرة النبوية فقد بدأ تدوين السنة والسيرة النبوية جنبا إلى جنب منذ وقت مبكر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك بكتابة الأحاديث التي تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمنه صلى الله عليه وسلم مثل بعثته صلى الله عليه وسلم وبداية نزول الوحي عليه وما لقيه بمكة قبل الهجرة ثم هجرته إلى المدينة، وهجرة بعض أصحابه إلى الحبشة قبل ذلك، وزيجاته صلى الله عليه وسلم وغزواته وأسفاره وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بشخصه وسلوكه في حياته كلها. فكل هذه الأمور مثبتة في السنة وكتبها.

أما التدوين الشامل للسيرة فقد بدأ منذ عهد معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه، حيث كان عبد الله بن عباس المتوفى سنة (٦٨) هـ رضى الله عنه يدرس تلاميذه نسب النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه وكان تلاميذه

يدونون ذلك، وكذلك فعل عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما المتوفى سنة (٦٣) هـ ومثلهما البراء بن عازب رضى الله عنه المتوفى سنة (٧٤) هـ حيث كان يملي تلاميذه مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي عصر التابعين -الذين عاصروا الصحابة وأخذوا عنهم - بدأ التأليف في السيرة فقد ألف كتاب عروة بن الزبير بن العوام المتوفى سنة (٩٣) هـ وهو ابن الصحابي الجليل الزبير بن العوام - ألف كتاب (مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم)

وكان أهم تأليف للتابعين هو كتاب أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة (١٠٥) هـ وهو ابن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أتم كتابه في السيرة والمغازي قبل سنة (٨٣) هـ ثم كتاب وهب بن منبه المتوفى سنة (١١٠) هـ وتوجد قطعة من كتابه (المغازي) في مدينة (هيد لبرغ) بألمانيا. وكذلك موسى بن عقبة المتوفى سنة (١٤١) هـ وتوجد أيضا نسخة من كتابه (المغازي) في (مكتبة برلين) بألمانيا وهؤلاء جميعا عاصروا الصحابة وأخذوا عنهم.

وأشمل كتابين في السيرة هما: (السير والمغازي) لمحمد بن إسحاق المتوفى سنة (١٥١) هـ، و (السيرة النبوية) لابن هشام المتوفى سنة (٢١٣) هـ وكلا المؤلفين قد عاصر التابعين وأخذ عنهم.

- [ثالثا الشمول والوضوح]

ثالثا: الشمول والوضوح فقد ثبتت تفاصيل سيرته صلى الله عليه وسلم بصورة شاملة وواضحة في جميع مراحلها منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة بنت وهب إلى ولادته صلى الله عليه وسلم ثم إلى بعثته صلى الله عليه

وسلم بكل ما مر به قبل ذلك، ثم من نشر دعوته إلى وفاته صلى الله عليه وسلم، فكل من أراد أن يعرف تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم يستطيع ذلك بيسر ومن مصادر متعددة ثابتة النسبة إلى مؤلفيها، موثوقة البيانات التاريخية بصورة علمية، فالرسول صلى الله عليه وسلم -كما قال أحد الناقدين الغربيين - (هو الوحيد الذي ولد في ضوء الشمس) - فقد تضمنت كتب السنة والسيرة النبوية إضافة إلى القرآن الكريم، تضمنت كل تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم العامة والخاصة، فنحن الآن نعرف بدقة تامة جميع صفاته الخلقية والخلقية والسلوكية، فنعرف على سبيل المثال: لون بشرته وشكل أنفه ومنخره، وشكل فمه وأسنانه، ولون شعره وطوله وهيئة مشيته وجلسته، وكيفية كلامه وضحكه، وأحب الطعام إليه، وكيفية أكله وشربه بل حتى علاقاته الزوجية وسلوكه مع أزواجه! بل أبعد من ذلك إن آثار بيته وبقاياه، وقبره الذي دفن فيه موجود حتى الساعة، وبالإمكان التأكد من كل الصفات المنسوبة إليه بالوسائل العلمية الحديثة. فقد توفر لسيرته صلى الله عليه وسلم من الحفظ والصون ما لم يتهيأ لبشر من قبله ولن يتوفر لكائن من كان من بعده صلى الله عليه وسلم. وهذه المزايا الثلاث تجعلنا على يقين تام بصحة هذه السيرة وأنها سيرة نبي خاتم هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ونوقن يقينا مبنيا على أساس علمي منهجي بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى إلى الناس كافة.

امتنان الله على الثقلين برسالته صلى الله عليه وسلم

من رحمة الله سبحانه بعباده أن أرسل فيهم رسله يبشرون وينذرون كلما ذهب نبي خلفه نبي حتى ختمهم نبي الرحمة محمدا صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك يقول سبحانه: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة}

. ولقد اختار منهم سيدهم وإمامهم فجعله خاتم النبيين واختصه بخصائص ومزايا لم يشاركه فيها أحد منهم، كما اختص أمته بخصائص ليست لغيرهم من الأمم السالفة، ومن تلك المزايا التي أمتاز بها على غيره من المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين أن بعثه إلى الأسود والأحمر بل إلى الجن والإنس جميعا

كما قال الله سبحانه عن الجن الذين استمعوا لقراءته صلى الله عليه وسلم ثم ولوا إلى قومهم منذرين: {يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين}

. وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي -فذكر من بينها- وكان النبي يبعث إلى قومه خاص وبعثت إلى الناس عامة". وفي ذلك يقول سبحانه: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا}

ويقول: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا}

. وقد أوضح ذلك صلوات الله وسلامه عليه في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحة حيث قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة

يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار.." قال سعيد بن جبير رحمه الله مصداق ذلك في كتاب الله عز وجل قال الله سبحانه: {ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده}

. ولا شك أن أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض هي إرسال هذا النبي الكريم الذي أكمل الله به الدين وجعله حجة على الناس أجمعين. وقد أخبر الله في كتابه العزيز عن إبراهيم بأدعية من بينها: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم}

.وقد أجاب الله دعائه فبعث في الأمين وفي غيرهم محمدا صلى الله عليه وسلم أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وتلك النعمة العظمى والمنة الجسيمة نوه الله بها في معرض الثناء

على نفسه سبحانه في آيات كثيرة منها قوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}

. ومنها قوله تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}

. ومنها قوله: {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون}

. ومنها قوله سبحانه: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم}

.

وإنما كان إرساله صلى الله عليه وسلم إلى الناس أعظم منة أمتن بها على عباده لأن في ذلك تخليص من وفقه الله وهداه منهم من العذاب السرمدي بسبب الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والابتعاد عن الشرك الذي لا يغفره الله كما قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}

. وقال: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار}

.

اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعليم

لم يعرف دين رفع قدر العلم، واحترم العلماء واهتم بطلب العلم، مثل الدين الإسلامي قال تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير}

[المجادلة:11]

.

ولقد رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في العلم وبين أنه طريق الجنة، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة" (1) . ولم يرغب صلى الله عليه وسلم أحدا أن يغبط أحدا على شيء من النعم التي أنعم الله بها على عباده إلا على نعمتين إحداهما: طلب العلم والعمل به، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها" (2) (3) .

ومن المؤكد أن ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على التعليم لم يرد على سبيل الإشارة العابرة هنا وهناك بدون امتداد وإثراء للفكرة ذاتها. فالقدر الكبير من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحض على طلب العلم والاستمرار فيه تؤكد أن الاهتمام بالتعليم كان فكرة أصيلة ضمن إطار فكري عام .

ولهذا فالإنسان المسلم في حاجة ماسة إلى العلم الذي ينمي الإيمان، ويغرس الفضائل، ويفقهه في دينه، فيحصل على الخيرية التي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيها: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" ، فيعبد ربه على بصيرة، فإذا تعلم وتفقه في أمور دينه ودنياه، وعلمه غيره ورغبهم في العلم، وبين لهم أن مجالسه تحفها الملائكة، وتنزل عليها السكينة، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله في الملأ الأعلى مقتديا في ذلك

برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رغب في العلم، وحرص على تعليم المسلمين أمور دينهم سواء كانوا رجالا أو نساء أو أطفالا.

وكان صلى الله عليه وسلم أرفق الناس بالمتعلمين، وأبعدهم عن التشديد والتعسير والفظاظة والغلظة، وهذا ما نوه به القرآن الكريم عند الإشارة إلى أخلاقه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر} [آل عمران: ١٥٩] .

وقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علمه الله تعالى قولا وفعلا وأمر أصحابه رضي الله عنهم بذلك، فعندما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن معلمين وقضاة قال لهما: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" .

ولهذا ينبغي للمعلمين الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في فعله وقوله بالرفق بطلابهم والصبر عليهم، وعدم تعنيفهم، كما قال الماوردي رحمه الله: "ألا يعنفوا متعلما، ولا يحقروا ناشئا، ولا يستصغروا مبتدئا، فإن ذلك أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم" .

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخص فئة دون أخرى بالتعليم أو يتابع مجموعة دون غيرها، بل كان حرصه على التعليم ممتدا ليشمل الصغار والكبار، والنساء والرجال، متابعا لأمورهم، حريصا على إرشادهم وتعليمهم بالقول والفعل والقدوة.

ولتقديم توضيح لاهتمامه صلى الله عليه وسلم بالجميع دون استثناء نتناول كيفية اهتمامه صلى الله عليه وسلم بتعليم الرجال، والنساء، وكذلك الأطفال.

رواية البخاري لقصة طعام الخندق

إنها قصة جابر التي يرويها رضي الله عنه يقول: (إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيبا أهيل، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت.

فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا ما كان في ذلك صبر، أفعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأكافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لي؛ فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له.

قال: كثير طيب! قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي فقال: قوموا.

فقام المهجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك! جاء النبي صلى الله عليه وسلم، والمهاجرون والأنصار معه، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم.

فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يقسم الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذوا منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية قال: كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة) هذا الحديث قد رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب المغازي.

وهذه القصة العظيمة تعتبر من معجزاته صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته صلى الله عليه وسلم كثيرة، كما أن خصائصه صلى الله عليه وسلم كثيرة، وكان عليه الصلاة والسلام قد كثر الله له الطعام، وكذلك الشراب من اللبن وغيره، وكذلك نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، وكان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل بين يديه صلى الله عليه وسلم، وكان حجر يسلم عليه بـ مكة، وانشق القمر له صلى الله عليه وسلم.

وكذلك فإنه صلى الله عليه وسلم قد حصل له من المعجزات في هذه القصة في مسألة فلق الصخرة، وأنه رأى اليمن والشام والعراق قد فتحت عليه.

هذه القصة فيها أيضا علمان من أعلام النبوة؛ تكثير الطعام القليل، وعلمه صلى الله عليه وسلم أن الطعام الذي يكفي في العادة خمسة أنفس أو نحوهم سيكثر ويكفي ألفا، فدعا ألف رجل قبل أن يصل؛ مع إنه يعلم أنه صاع من شعير وبهيمة، وكذلك آمن الصحابة بين يديه وهم يرون هذه المعجزات.

وقد جمع المعجزات عدد من العلماء منهم: القفال الشاشي في الدلائل، وصاحبه أبو عبد الله القديمي وكذلك أبو بكر البيهقي، قال النووي رحمه الله: وأحسنها كتاب البيهقي وهو دلائل النبوة مطبوع في مجلدات، وهذه القصة فيها نصر الصحابة للدين، وقيامهم بحفر هذا الخندق.

وكذلك في هذه القصة أن الأمل لا يفقد بالمؤمن؛ حتى مع الحصار وقوة الأعداء، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يوقن بنصر الله عزوجل، وأن الله

سيتم هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.

هرقل يسأل وأبو سفيان يجيب

روى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن عبد الله بن عباس: (أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش؛ وكانوا تجارا بـ الشام في المدة التي كان رسول الله عليه الصلاة والسلام ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش) هرقل جاءته رسالة النبي عليه الصلاة والسلام فأراد أناسا من قوم النبي عليه الصلاة والسلام؛ ليسأل عن حاله، فعثر على أبي سفيان وكان مشركا مع بعض من كفار قريش؛ وقد كانوا تجارا بـ الشام، فأتي بهم إلى هرقل.

قال: (فأتوه وهم بـ إيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبا.

فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه) سأسأل صاحبكم الذي يجلس أمامكم وهو أبو سفيان عن صاحبكم، الذي هو النبي عليه الصلاة والسلام، فإن كذب في الإجابة فبينوا لي أنه قد كذب.

(يقول أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا.

ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها -نحن الآن في مرحلة صلح الحديبية في هدنة معه لا ندري ماذا يفعل فيها؟ - قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة) أي: ما استطعت أن أدخل دسيسة في الجواب إلا في هذا الموضع.

(قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال -يعني: تناوب في الانتصار، مرة لنا ومرة له- ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصدق، والعفاف والصلة).

هرقل يبين حقيقة نبوة المصطفى من إجابات أبي سفيان

(فقال للترجمان - هرقل يقول للترجمان الذي يترجم من لغة إلى أخرى-: قل له - لـ أبي سفيان -: سألتك عن نسبه؟ فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ -يعني: من قبل- فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله) أي: مقلد، لكن ما أحد قال هذا الكلام قبله.

(وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه) سبب هذه الدعوة أنه يطالب بملك أبيه، لكن ليس من آبائه من ملك.

(وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله) يعني: هرقل متأكد من أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق.

(وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل) هرقل يعرف أن أتباع الرسل هم الضعفاء.

(وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم -يعني: يبدأ غريبا ثم ينتشر-.

وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه).

نص رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لهرقل

دعا هرقل بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام -يعني: دعوة الإسلام؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله- أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين -وهم الفلاحون الذين كانوا من رعايا هرقل - و {يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}

[آل عمران:٦٤]

.

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب -أي: الأصوات المختلطة المرتفعة- وارتفعت الأصوات، وأخرجنا.

فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة -لقد عظم أمر محمد صلى الله عليه وسلم- إنه يخافه ملك بني الأصفر - أبو سفيان يقول: هرقل؛ هذا ملك الروم يخاف محمدا! صلى الله عليه وسلم (فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام).

(وكان ابن الناظور أو ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل سقفا على نصارى الشام) ابن الناطور وهرقل كانا من علماء النصارى بالدين، وكانا زميلين في الدين النصراني.

(وكان ابن الناطور -صاحب إيلياء وهرقل - سقفا على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس، فقال بعض بطارقته -يعني: الرجال الكبار عنده-: قد استنكرنا هيئتك.

قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟) أي: لما سألوه: ما بالك مهموما؟ قال: رأيت ملك الختان قد ظهر، انظروا من يختتن في العالم في الناس؟! من يختتن؟! (قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمك شأنهم، واكتب إلى المدن في ملكك فيقتلوا من فيها من اليهود.

فبينما هم على أمرهم أتي هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ -الرسول هذا الذي جاء برسالة من محمد صلى الله عليه وسلم انظروا هل هو مختتن أم لا؟ - فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن.

وسأله عن العرب.

فقال: هم يختتنون.

فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر.

ثم كتب هرقل إلى صاحب له بـ رومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمصا حتى أتاه كتاب من صاحبه -الذي في رومية - يوافق رأي هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بـ حمص -بناء كالقصر أمر بأن يدخلوا إليه- ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع - هرقل اطلع على كل الكبراء الذين أدخلوا- فقال: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت -اضطربوا وتدافعوا إلى الأبواب- فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل).

هذه القصة التي رواها البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه، وكذلك رواها مسلم رحمه الله، والحديث عند الترمذي وأبي داود وأحمد في سياقات مختلفة.

حديث خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر واستضافة أبي الهيثم لهم

روى هذه القصة الإمام الترمذي -رحمه الله تعالى- في هذا الحديث الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: ما جاء بك يا أبا بكر؟ فقال: خرجت ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنظر في وجهه والتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: ما جاء بك يا عمر؟ قال: الجوع يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنا قد وجدت بعض ذلك، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلا كثير النخل والشاء، ولم يكن له خدم، فلم يجدوه، فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء، فلم يلبث أن جاء أبو الهيثم بقربة يزعبها، فوضعها، ثم جاء يلتزم النبي صلى الله عليه وسلم ويفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته، فبسط لهم بساطه، ثم انطلق إلى نخلة، فجاء بقنو فوضعه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أفلا تنقيت لنا من رطبه؟ فقال: يا رسول الله! إني أردت أن تختاروا، أو قال: تخيروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة؛ ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد.

فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تذبحن ذات در، قال: فذبح لهم عناقا أو جديا، فأتاهم بها، فأكلوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل لك خادم؟ قال: لا، قال: فإذا أتانا سبي

فائتنا، فأتي النبي صلى الله عليه وسلم برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اختر منهما.

فقال: يا نبي الله! اختر لي.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن المستشار مؤتمن، خذ هذا، فإني رأيته يصلي، واستوص به معروفا، فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته، فأخبرها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت امرأته: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن تعتقه، قال: فهو عتيق، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله لم يبعث نبيا ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالا، ومن يوق بطانة السوء فقد وقي) قال أبو عيسى الترمذي رحمه الله: هذا حديث حسن صحيح.

التهييج والتحريض ضد المسلمين

روى ابن هشام وغيره من أصحاب السير بدايات نشوء التوجه لغزو المسلمين من قبل الكافرين في أحد.

قال ابن هشام: مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر؛ فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة،

فقالوا: إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا.

ففعلوا ذلك.

إنها الدعوة والتحريض، والإثارة والتهييج، وإذكاء نار العداوة في القلوب، وإشعال جمر الغضب على أمة الإسلام، وزرع الخوف من المسلمين لأنهم الخطر الداهم والعدو الغاشم حتى تتوحد الصفوف في العداء نحوهم، وتتوجه القوى المادية والمعنوية بالكيد لهم، هكذا صنع صفوان وعكرمة وغيرهما ممن من الله عز وجل عليهم بعد ذلك بالإسلام وصاروا من خيار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن الصورة الحية المتحركة تبين لنا كيف يعمل أهل الكفر في صفوفهم ويأزون أصحابهم أزا، ويدفعونهم دفعا، ويستخرجون منهم العون والتأييد المادي والمعنوي، فإذا بهم يجوبون الآفاق، كما يقع اليوم في هذه الدنيا التي نرى فيها تكالب أعداء المسلمين على هذه الأمة المستضعفة في شرق الأرض وغربها.

فكم من دور لمثل ما وقع من عكرمة وصفوان وعبد الله بن أبي ربيعة وغيرهم يقع اليوم في التأليب على أمة الإسلام والمسلمين، وعلى مجتمعات المسلمين في كثير من بقاع الإسلام: {وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد}

[ص:٦]

، انطلاق، ومشي، وسعي، وحركة، وتأليب، وعرض، وتقليب للحقائق، وتزوير للصورة، وتشويه لأمة الإسلام حتى ينشأ العداء في القلوب، وتتوجه القوى لحرب أمة الإسلام.

قال ابن إسحاق رحمه الله: ففيهم -أي: هؤلاء- كما ذكر لي بعض أهل العلم أنزل الله جل وعلا قوله تعالى: {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون}

[الأنفال:٣٦]

.

هؤلاء قد ذكر الله عز وجل شأنهم بصيغة الفعل المضارع الذي يدل على تجدد فعلهم وتكرره في كل زمان، {إن الذين كفروا}

أي: بأية ملة كانت غير ملة الإسلام كفروا بالله عز وجل، وكفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، (إن الذين كفروا) بهذا الوصف المطلق العام الشامل {ينفقون أموالهم}

أي: في كل زمان ومكان وموقف، لماذا؟ {ليصدوا عن سبيل الله}

، ويحولوا بين الناس وبين الإسلام.

ثم يخبر الله عز وجل عن العاقبة التي ينبغي أن نوقن بها، ولكن ينبغي أيضا أن نعمل لتحقيقها {فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون}

، وكم نرى من إنفاق الأموال وتدبير الخطط، واستغلال العقول والأفكار الخبيثة والمكر والدهاء الخبيث لكي تقع الدائرة على أمة الإسلام والمسلمين؟

استغلال كل الطاقات لحرب الإسلام

انظر إلى مواقف أخرى حتى ندرك ما يحل بواقعنا الإسلامي اليوم، فهذا أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي أحد من أسروا في يوم بدر من الكفار، وكان فقيرا ذا عيال وحاجة، رق له قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يفيض رحمة، ونفسه التي تجود كرما، فمن عليه بالفداء والعتق دون مال ودون شرط، ورده إلى أهل مكة سالما غانما من غير ما شيء، فأي شيء فعل هذا الرجل؟ لا شك أن إحسان النبي صلى الله عليه وسلم قد أثر في نفسه، ولا شك أن هذه المعاملة الإسلامية العظيمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلت سخيمة قلبه وشحناء نفسه، فجاءه صفوان بن أمية وقال له: يا أبا عزة! إنك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك.

استغلال لطاقات الكفر كلها، للطاقات الإعلامية والسياسية والقتالية وكل قوة أو قدرة يمكن أن تكون موجهة ضد الإسلام والمسلمين.

إنك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك، واخرج معنا لتكون محاربا بلسانك لا بسنانك، فقال أبو عزة: إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد من علي فلا أريد أن أظاهر عليه.

كان هذا هو الموقف المتوقع من أبي عزة، فقال له صفوان: أعنا بنفسك فلله علي إن رجعت -أي: سالما- أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر.

تأجيج وإغراء وتثبيت لأهل الكفر ليكونوا في مواجهة واحدة ضد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المسلمين، فهذا رجل واحد لم يتركوه، كان واقفا على الحياد فأتوا ليحرفوه، كان مترددا فدفعوه، وخامدا فحمسوه وشجعوه، ثم تعهدوا وتكفلوا له بأمور المادة والحياة الدنيوية: (فلله علي إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن

من عسر ويسر) كذا قال صفوان بن أمية رضي الله عنه، وهو في ذلك الوقت على كفره وشركه.

حتى هذا الرجل الواحد الذي ليس عنده من سلاح غير لسانه وشعره دعي إلى ذلك، فلما قيل له ذلك تزعزع عن موقفه، وتحرك ليكون حربة موجهة للإسلام والمسلمين، وليكون قوة تضاف إلى قوة أهل الكفر ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام، فتحرك وانطلق في تهامة يدعو بني كنانة ليكونوا مع قريش ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام.

استغلال الإمكانيات الفردية وانتقائها

هناك مواقف أخرى تستغل كل شيء، وكل طاقة، وكل صغير وكبير، لتحشد الحشود، وتجيش الجيوش، وتوجه القوى ضد أمة الإسلام، دعا جبير بن مطعم رضي الله عنه وأرضاه -وكان على كفره وشركه آنذاك- دعا غلاما له حبشيا يقال له: وحشي.

يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ، كان راميا بالحراب شهيرا، وكان عبدا حبشيا حقيرا، وكان كما مهملا لا قيمة له، فجاء يستنهضه ويبعث همته ويعلي منزلته، ويعده بمستقبل زاهر ليسدد حربته إلى صدور أهل الإسلام، وليكون مع غيره ممن لهم سبق في عداء أمة الإسلام لينضم إليهم، فقال له: اخرج مع الناس، فإن قتلت حمزة عم محمد صلى الله عليه وسلم بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق.

أي: يعتقه ويخرجه من الرق إلى الحرية، فخرج وحشي ليست له مهمة إلا قتل حمزة رضي الله عنه، وقتله وحشي رضي الله عنه وأرضاه، وكان ذلك من أعظم ما أثر في نفسه حتى هيأ الله له عملا رأى أنه بإذن الله عز وجل

يشفي غليله من ذلك الفعل الذي وقع عندما قتل بحربته مسيلمة الكذاب، ثم كان يقول: قتلت بحربتي هذه خير الناس وقتلت بها شر الناس.

يعني حمزة بن عبد المطلب لما كان وحشي كافرا وحمزة مسلما، ويعني بعد ذلك مسيلمة الكذاب لما كان وحشي مسلما مجاهدا ضد مسيلمة وقومه.

فهذا فرد واحد جيء به لتكون له مهمة واحدة وأمر محدد معين، المقصود أن يبلي في حرب الإسلام والمسلمين بلاءه، وأن يتحرك حركته بما يستطيع، وهكذا نرى هذه الصورة التي تدلنا على هذا التجييش والانتقاء للطاقات، ومعرفة كل إمكانية حتى توظف في اتجاهها الصحيح في حرب أمة الإسلام؛ لأن الذين كفروا لا يمكن أن يوادعوا، ولا أن يهادنوا، فضلا عن أن يحبوا أو أن يناصروا، فضلا عن أن يعينوا أو أن يوافقوا أمة الإسلام في شيء مطلقا، قال تعالى: {ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء}

[النساء:٨٩]

، {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}

[البقرة:١٢٠]

، حقائق القرآن تنطق، وآياته مخلدة إلى قيام الساعة تخبرنا بما علمنا الله عز وجل إياه من حقائق أهل الإيمان والكفر.

استخدام النساء لبعث الحمية في القلوب

قال ابن هشام في غزوة أحد: فخرجت قريش بحدها وجدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة.

ليس ذلك فحسب، وإنما كما قال ابن هشام: وخرجوا معهم بالضعن -أي: النساء- خرجوا معهم بالنساء التماس الحفيظة وأن لا يفروا.

حتى يكون وجود نسائهم وأعراضهم مهيجا لهم على الثبات والقتال، ومانعا لهم من الفرار والنكوص، وقد رأوا ما رأوا في بدر من قبل ذلك، فأرادوا أن يخرجوا بالنساء ليكملوا تجييش جيوشهم، وليجعلوا كل قواهم في الرجال والنساء والعبيد والأحرار والصغار والكبار موجهة وجهة واحدة في حرب الإسلام والمسلمين، فخرج كبراؤهم بنسائهم، خرج أبو سفيان ومعه هند بنت عتبة، وعكرمة بن أبي جهل خرج بـ أم حكيم بنت الحارث، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بـ فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وكان والدها قد قتل في يوم بدر، وخرج صفوان بن أمية بـ بردة بنت مسعود الثقفية؛ خرج الكبراء بالنساء حتى يجيشوا ويقووا توجههم ضد الإسلام والمسلمين، ولا يكون هناك مجال للتراجع أو التخاذل، فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قام النساء بدورهن في حرب الإسلام والمسلمين، وقامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها على رءوس الرجال يحرضنهم على القتال ويقلن: ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار ضربا بكل بتار ويقلن: إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق فراقا غير وامق أي: غير محب.

فكن يحرضن على القتال ويؤلبن عليه، وكانت هذه أيضا صورة من صور تكامل العداء الذي توجه به كفار قريش ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والمجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، وهي صورة

تتكرر وتظهر بهذا التكامل الذي لا يخفى على عين البصير ولا على إدراك العاقل، فإن أمة الإسلام اليوم لا شك أنها تواجه مثل هذه الصور من العداء مع اختلاف وعظمة في الإمكانيات، وكثرة في أولئك الأعداء، وكيد ومكر في التخطيط والدهاء، كثيرة هي الصور التي تشابه في أصلها وتفوق في عظمتها وقوتها وشدتها ما كان عليه كفار قريش في حربهم وعدائهم للإسلام والمسلمين ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، أفلسنا نرى صورة تتجدد لتلك الحشود التي تحشد ضد الإسلام والمسلمين؟ أولسنا نسمع أبواق الإعلام التي تشوه صورة الإسلام وتتهم أمة الإسلام بالدموية ونحو ذلك؟ أولسنا نرى صور كل فتنة وسبيل من أسباب الكيد والإغراء، وصورة من صور المكر والدهاء وهي تحاك ضد الإسلام والمسلمين؟ وما أمور المسلمين في البوسنة أو كشمير عنا ببعيد، أو في غيرها من بلاد الإسلام، فإن الأمر جد واضح {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}

[الأنفال: ٣٠]

، وهم على هذا النهج سائرون، وهذه صورة من الصور ومواقف قليلة في غزوة أحد فحسب، فما ظنك بغيرها؟ وما ظنك بحشود كانت قبل ذلك وبعد ذلك؟ وما ظنك بكيد وكيد كان مثله واضحا بينا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

أثر عمل المنافقين بين صفوف المسلمين

حتى ندرك ما ينبغي أن نستخرجه ونتعلمه من سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم، وندرك الحقائق القرآنية التي تبين أن أهل الكفر قائمون منتظرون لأية فرصة أو غفوة أو هفوة حتى يسددوا سهامهم، ويرموا بنبالهم، وينزلوا كيدهم وغضبهم وحقدهم على أمة الإسلام نتلوا قول الله تعالى: {ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة}

[النساء:١٠٢]

، ينتظرون غفلة أو ثغرة أو ضعفا، فلا تكن أنت ولا يكن غيرك من أهل الإسلام موضعا يلج منه أعداء الإسلام ضد المسلمين، وقد أخبر الله عز وجل بحقيقة ما في قلوبهم لما قال: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم}

[البقرة:١٠٥]

، هذا هو الشأن فيهم، وهذا هو الخبر الصادق القرآني عما في قلوبهم، وهكذا نجد الآيات القرآنية تكشف لنا كثيرا من هذا الذي ثبت وظهر في سيرة وأحداث ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وما كان بين أعدائه في ذلك الوقت.

ولإن كان هؤلاء الكفار هم الصورة الظاهرة للعداء فإن أهل النفاق هم الصورة الخفية المتلونة الشديدة في أثرها من صور العداء؛ لأن أولئك قد

باينوا وفارقوا وواجهوا وأظهروا وأعلنوا، أما أهل النفاق فقد اندسوا بين الصفوف وأضمروا غير ما أعلنوا، وهم يطعنون من وراء الظهر كما يقال.

فننظر أيضا إلى بعض الصور التي جاءت في غزوة أحد، لنرى صورة أكثر أهمية وخطورة فيما يتعلق بالأضرار التي تقع على المسلمين في كل زمان ومكان من أهل النفاق الذين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في بعض حديثه عن بعض صورهم في أحاديث كثيرة، وكان فيما قاله حديث آخر الزمان من حديث حذيفة: (هم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)، إن أمر النفاق بدأ ونجم بعد غزوة بدر لما علت راية الإسلام، وانتصر حزب الإيمان وحزب الرحمن، حينئذ قالوا: لا مناص من أن تدخلوا تحت الراية، وتندرجوا في الصف حتى لا تكونوا مفارقين مخالفين.

فدخلوا في صف الإسلام وهم على الكفر مقيمون، والبغضاء والحقد والكيد في قلوبهم قد انطوت عليه نفوسهم وأضمروه فيها، فماذا كان لما جاءت غزوة أحد؟ كان من رأي النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر أن يبقى في المدينة ويتحصن فيها، حتى إذا غزاها أهل الكفر كان للمسلمين قدرة على صدهم وردهم وإيقاع الهزيمة بهم، ثم كان بعض المسلمين من المتحمسين الذين لم يشهدوا بدرا وأرادوا شرف الجهاد وطمعوا في أجر الاستشهاد كانوا يرون الخروج، حتى خرج النبي صلى الله عليه وسلم ولبس لأمته ودرعه، ثم عزم على القتال.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين يرى الرأي الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم في البقاء في المدينة، فماذا صنع؟ خرج مع الجيش المسلم حتى إذا كان الجيش بالشوط -مكان بين المدينة وأحد- انخذل عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه ممن وافقه من قومه على نفاقه، انخذلوا بثلث جيش المسلمين ورجعوا، وقال عبد الله: أطاعهم وعصاني، وما ندري

علام نقتل أنفسنا؟ فلحقهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله رضي الله عنه، لحقهم ليردهم ويذكرهم بإيمانهم ونصرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: {لو نعلم قتالا لاتبعناكم}

[آل عمران:١٦٧]

، وتعذروا بحجج أهل النفاق، ومضى عبد الله بن أبي يخذل الناس، حتى إذا آيس منهم عبد الله بن عمرو بن حرام دعا عليهم.

فانظر إلى هذا الموقف، فبعد أن تألبت قريش، وجاءت الأخبار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الجيش العرمرم الذي جاءت به قريش، وهو أكثر من ثلاثة أضعاف جيش المسلمين، ومع ذلك ينخذل عبد الله بن أبي في اللحظة الحاسمة وفي الوقت العصيب، وهكذا هو شأن أهل النفاق، يختفون ويظهرون بمظهر الموافق، حتى إذا جد الجد، ودنت ساعة المواجهة، أو احتاج المسلمون إلى النصرة أو التثبيت كان دورهم الخذلان والتثبيط، وهكذا فعل عبد الله بن أبي بهؤلاء المسلمين.

ثم قد ذكر أهل السير من الأحداث ما يدل على أن أهل النفاق لم يرجعوا كلهم، وإنما رجع بعضهم، وبعضهم واصل المسيرة وظهرت مقالاتهم وأفعالهم في أثناء الغزوة، وكان من خبر أولئك ما ذكره بعض أهل التفسير في قوله تعالى: {منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}

[آل عمران:١٥٢]

قال: المقصود بأولئك بعض أهل النفاق من الرماة الذين تركوا مواقعهم وانصرفوا إلى الدنيا؛ لأنهم كانوا قد خرجوا إليها.

وكذلك ما روي أيضا في السير من أن بعضهم لما بلغه شائعة قتل النبي صلى الله عليه وسلم، ولما بدأت الدائرة في آخر المعركة تدور على المسلمين قال بعضهم وخرج ما في قلوبهم: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا أمانا من أبي سفيان.

ثم قالوا: إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

وهذا الزبير رضي الله عنه يروي أيضا -كما ورد في أسباب نزول بعض الآيات التي جاءت في أحد- قال: إني لأسمع قول معتب بن قشير وأنا في الحلم كالنائم -عندما غشيهم النعاس لتثبيتهم وتطمينهم في غزوة أحد كما حصل في غزوة بدر أيضا- قال: إني لأسمع قوله وهو يقول: {لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا}

[آل عمران:١٥٤]

.

فكان هذا تثبيطهم في الغزوة، ثم جاء دورهم أيضا بعد الغزوة، ووافقوا اليهود في المقالة التي أشاعوها بين أهل الإسلام توهينا لهم وتثبيطا، وزرعا للزعزعة بين الصفوف، قالوا: لو كان نبيا ما ظهروا عليه ولا أصيب منه ما أصيب، ولكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه.

وقال المنافقون للمسلمين أيضا: لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذي أصابكم.

وهكذا نجد هذه المواقف التي تمثل صورة أكثر تأثيرا في العداء والخذلان في داخل صفوف المسلمين من أهل النفاق، ولو تأملنا لوجدناها تتكرر كثيرا في حياة الأمة الإسلامية اليوم، مما يستدعي أن يحرص المسلمون على معرفة حقيقة أعدائهم في داخل صفوفهم وخارجها، والله سبحانه وتعالى قد بين مصير أولئك وأولئك، فقال جل وعلا: {إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا}

[النساء: ١٤٠]

، وهذه العاقبة الختامية، ولكن المسلمون مطالبون أن يرفعوا راية الإسلام، ويحموا حوزة الإسلام والمسلمين، ويحافظوا على حرمات المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فالله نسأل أن يرد عنا كيد الكائدين، ويخذل عنا المعتدين، ويحمينا من شرور الكافرين والمنافقين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

حقيقة الولاء والبراء بين الكفار والمنافقين

وإن المسلم ينبغي له أن يتأمل في آيات القرآن وأحداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليدرك الحقائق، ويتلمس طريق النجاة، والصراط المستقيم الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر الله عز وجل عنه في تلك

الوصية الجامعة: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}

[الأنعام:١٥٣]

.

وإن المتأمل يجد الحقيقة القرآنية في أمر مهم نذكر به، ولعلنا نختم به الحديث عن هذه الصورة الموجزة في غزوة أحد، وهو أمر التعاضد والتناصر والولاء الذي يجمع أهل الكفر وأهل النفاق، فقد أخبر الله عز وجل بذلك في قوله: {والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير}

[الأنفال:٧٣]

، فهم يوالي بعضهم بعضا، ويناصر بعضهم بعضا، ويعين بعضهم بعضا، ويثبت بعضهم بعضا، ويتبادلون فيما بينهم كل ما يعينهم على تحصيل حظوظهم الدنيوية، والنيل من أهل الإسلام في كل مكان، والله عز وجل أخبر أيضا عن أهل النفاق فقال: {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم}

[التوبة:٦٧]

، أخبر عن حقيقة فعلهم وحقيقة تعاضدهم وولائهم، وأنهم بعضهم من بعض، ولحمتهم واحدة، ودينهم واحد، وقد دعا الله جل وعلا أمة الإسلام إلى أن تحرص على موالاتها ومعاداتها فتجعلها لله سبحانه وتعالى، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله)، وكما بين النبي صلى الله عليه وسلم أن الولاء والبراء عقيدة إيمانية، وكما دعانا القرآن الكريم بآيات تتلى إلى يوم الدين: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض}

[المائدة:٥١]

، وكما بينت الآيات القرآنية في غير ما آية ضرورة ولاء المسلمين بعضهم لبعض، وبرائهم من أعداء الله عز وجل، ولو تحقق ذلك في كل مسلم وفي كل مجتمع لبرئنا كثيرا من أضرار أولئك المندسين في الصفوف، ولبرئنا كثيرا أيضا من الأوهام والأغلاط التي تجعل بعض المسلمين ربما يحسن الظن بالأعداء، أو يواليهم، أو يناصرهم، أو يكون معينا لهم -والعياذ بالله- على غيره من المسلمين، وهذا أمر ينبغي أن نتفطن له، وهذه الغزوة يتجدد الحديث عنها دائما، ونجد فيها وفي غيرها من أحداث السيرة مواقف ودروسا وعبرا تستحق التأمل، ولعل هذه الصورة المبسطة توقظنا إلى الحقيقة الواقعة الشاهدة الناطقة بها أحداث هذا العالم اليوم في تألبه وتكالبه على أمة الإسلام، وسعيه لحربها من داخل صفوفها ومن خارجها {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}

[الأنفال: ٣٠]

، وكما قال جل وعلا: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا}

[الحج:٣٨]

، لكنه جل وعلا قد اشترط الشرط فقال: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}

[محمد:٧]

، فأروا الله عز وجل من قلوبكم وولائكم وبرائكم والتزامكم بدينكم ما يجعل أمر الله بالنصر يتنزل على أمة الإسلام، ويعود -بإذن الله عز وجل- لها سالف عزتها وعظيم مجدها ووحدتها وقوتها التي كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عهود الإسلام الزاهرة في أوقات كثيرة.

وفي هذا المقام نذكر أنفسنا أيضا بالأعمال الصالحة التي ندبنا إليها في الأوقات الطيبة المباركة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: (من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال فكأنما صام الدهر كله)، وفي روايات توضيحية تفسيرية لهذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الحسنة بعشر أمثالها) فشهر بعشرة أشهر، وستة أيام تعدل شهرين، فيكون ذلك عدل السنة كلها.

فاحرص أخي المسلم على أن لا تفوت على نفسك هذا الأجر العظيم، وأن لا تجعل حظك من رمضان والصوم ينقطع بنهاية أيامه، والاستقامة أمر عظيم، قال الله: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون}

[فصلت: ٣٠]

، والنبي صلى الله عليه وسلم لما استوصاه ذلك الرجل قال: (قل: آمنت بالله ثم استقم)، فالاستقامة على الطاعات والخيرات من مؤشرات القبول الذي نرجوه من الله سبحانه وتعالى لصيامنا وقيامنا وسائر أعمالنا، ومن بشائر الخير التي يمن الله بها علينا؛ لأن الطاعة تثمر الطاعة، والقبول يولد العمل الصالح بإذن الله عز وجل.

نسأل الله جل وعلا أن يتقبل أعمالنا، وأن يعيننا فيما بقي من أيامنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللهم! تول أمرنا، وارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وبلغنا فيما يرضيك آمالنا، اللهم! إنا نسألك العفو والعافية، والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، اللهم! إنا نسألك إيمانا كاملا، ويقينا صادقا، وقلبا خاشعا، ولسانا ذاكرا، وطرفا دامعا، وعلما نافعا، ورزقا واسعا، وتوبة قبل الموت، ومغفرة بعد الموت، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم! أعز الإسلام والمسلمين، وارفع بفضلك كلمة الحق والدين، ونكس رايات الكفرة والملحدين، اللهم! من أرادنا وأرد الإسلام والمسلمين بخير فوفقه لكل خير، ومن أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسوء فاجعل دائرة السوء عليه، واجعل تدبيره تدميرا عليه يا سميع الدعاء.

اللهم! أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، اللهم! مكن في الأمة لأهل الخير والرشاد، واقمع أهل الزيغ والنفاق والفساد، وارفع في الأمة علم الجهاد، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم! إنا نسألك أن تنزل سخطك وغضبك وعذابك على الكافرين، وعلى المعتدين على عبادك المؤمنين في كل مكان يا رب العالمين اللهم! أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا، اللهم! زلزل الأرض من تحت أقدامهم، وخذهم أخذ عزيز مقتدر، اللهم! إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم! اجعلهم عبرة للمعتبرين، لا ترفع -اللهم- لهم راية، واجعلهم لمن خلفهم آية، اللهم! سود وجوههم، ونكس راياتهم، وأذل أعناقهم، واستأصل شأفتهم، ودمر قوتهم يا قوي يا عزيز، يا منتقم يا جبار، يا من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

اللهم! انصر عبادك وجندك المجاهدين في كل مكان يا رب العالمين، اللهم! وفق العلماء والدعاة العاملين لنصرة الإسلام والمسلمين في مكان يا رب العالمين، اللهم! وعليك بسائر أعداء الدين في كل مكان يا رب العالمين، اللهم! رحمتك ولطفك بعبادك المؤمنين المضطهدين والمعذبين والمشردين والمبعدين في كل مكان يا رب العالمين، اللهم! ثبت إيمانهم، وزد يقينهم، وعجل فرجهم، ونفس كربهم، وقرب نصرهم، وادحر عدوهم يا رب العالمين.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

غزوة أحد درس التضحية والثبات

ما زالت أمة الإسلام مذ وجدت الأمة الولود التي تضحي بأبنائها في مواقف الشدة، لتعلن بذلك مواقف الثبات على الدين، وتعلي راية المسلمين، وتقول للعالمين: نحن على درب الأنبياء لن نهين أو نستكين، والأمثلة على ذلك كثيرة، ويشهد بذلك التاريخ من بداية دعوة النبي صلى الله عليه وسلم،

ومن ذلك ما وقع في غزوة أحد، حيث أبدى المسلمون أمثلة من التضحيات وكتبوا في صفحات التاريخ دروسا لا تنسى.

دروس السيرة معين لا ينضب

أيها الإخوة المؤمنون! حنين كثير وشوق كبير يشدنا دائما إلى السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، لنجلس في أفياء أحداثها مجلس التلاميذ الذين يتلقون العلوم والدروس النافعة المفيدة في أمور العقيدة والإيمان، والعبادة والأحكام، والسيادة والقيادة، والحرب والجهاد، والسلم وإدارة شئون الحياة؛ إنها مدرسة كاملة لإعمار هذه الدنيا على منهج الله عز وجل، وللسعي إلى رضوان الله سبحانه وتعالى في الآخرة.

وإن الوقفة التي نحب أن نقفها اليوم تتصل بأحداث غزوة أحد التي كانت في شهر شوال من العام الثالث للهجرة، وقد كانت لنا وقفات كثيرة سابقة، وفي كل مرة نأخذ ومضة من ومضاتها، ونقف مع درس من دروسها؛ لأنها معين لا ينضب من هذه الدروس والعبر والفوائد والمنافع، وإن درس اليوم الذي نقف عنده هو: درس التضحية والثبات؛ فإن سنة الله جل وعلا قد مضت أن هذا الدين لا يتحقق في واقع الحياة، ولا يثبت على هذه الأرض، ولا تعلو رايته خفاقة فوق البقاع، ولا يتحقق منهجه بين الناس إلا بجهد من أبناء هذا الدين يسبقه ويرافقه ويعقبه توفيق من الله عز وجل.

إن هذا الدين لابد له من علم ينشر، ودعوة تبذل، وأموال تنفق، ومهج وأرواح تزهق في سبيل الله عز وجل، إنه ليس أمرا هينا؛ إنها الرسالة

العظيمة الخالدة، إنها الأمانة الكبيرة الماجدة: {إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}

[الأحزاب:٧٢]

، ويخاطب الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول: {إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا}

[المزمل:٥]

، إنها أمانة هذا الدين والرسالة الخاتمة من رب العالمين، الدين الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للناس أجمعين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها يوم يقوم الناس لرب العالمين.

هذه الرسالة العظيمة، وهذا الدرس الكريم نقف مع ومضات منه لنرى صورته في غزوة أحد، ولست معنيا بالوقوف مع الأحداث وترتيبها، وإنما نأخذ هذا الدرس الواضح الجلي في هذه المعركة العظيمة من معارك الإسلام الخالدة التي قادها محمد صلى الله عليه وسلم برفقة الصحب الكرام الغر الميامين الأبطال الشجعان رضوان الله عليهم أجمعين.

وقبل أن نأخذ هذا الدرس من الصحابة رضوان الله عليهم نقف وقفة مع الجانب المناوئ للمسلمين، نقف وقفة لنرى صورا من تضحية أهل الباطل، ونماذج من ثباتهم على باطلهم لا لشيء إلا تشبثا بحمية الجاهلية، وإعزازا لمذاهب الكفر، وإرغاما للإسلام وأهله، فإن الكفر أيضا لا ينتشر إلا ووراءه

جهود تبذل، وأموال تنفق، وجهود وأعمال كبيرة، أفيكون أهل الباطل أحرص على باطلهم، وأغير على كفرهم، وأبذل له من أهل الحق والإيمان؟ لم يكن ذلك أبدا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بل كان أهل الإيمان هم السابقون في تضحياتهم، الشامخون في ثباتهم رضوان الله عليهم أجمعين.

لما انتهت غزوة بدر كانت جراح مشركي مكة عظيمة غائرة، ونكبتهم وخسارتهم فادحة، وعظمتهم قد مرغت في التراب، ونفوسهم تشتعل نيرانا للأخذ بثأر كفارهم وقتلاهم من النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام، ولم يكن الأمر مقتصرا على بدر؛ فقد كانت بين بدر وأحد وما بينهما من السرايا ما أظهر الله عز وجل به كلمة الإسلام، وكان آخرها: سرية زيد بن حارثة، التي عرض فيها لقافلة من قوافل قريش التجارية، ورغم أنهم تجنبوا طريق المدينة إلا أن سرية زيد بن حارثة أدركتهم وسبت كل مالهم وتجارتهم وفروا هاربين، فما كانت صورة استعدادات أهل الكفر؟ وما هي تطبيقاتهم العملية في ميدان المعركة؟

بذل أهل الباطل لأموالهم

لما نجت قافلة قريش الأولى في بدر ولقي المشركون الهزيمة، قال زعماؤهم وكبراؤهم: يا معشر قريش! إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم؛ فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأرا.

هذه القافلة التجارية التي كانت سبب غزوة بدر نريد أن تنفق لتجهيز الجيوش، وقيام الحملات الإعلامية، وتكتيل الصفوف لحرب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام تجارة موسمية كاملة، وخاطب قريش كبار

تجارهم: إن هذه الأموال نريد أن تحول لتكون وقودا للتعبئة العسكرية علنا أن ندرك من محمد صلى الله عليه وسلم ثأرا، فأجابوا إلى ذلك؛ فباعوها كلها وأنفقوها في حرب الإسلام والمسلمين، وكانت تلك القافلة كما ذكر أصحاب السير: ألف بعير كاملة، وخمسين ألف دينار؛ أنفقت كلها لحرب الإسلام والمسلمين، ونزل في ذلك كما ذكر بعض أهل السير والتفسير قول الله عز وجل: {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون}

[الأنفال:٣٦]

.

المهم أنهم ينفقون ويبذلون ونراهم اليوم يجددون تلك السيرة، ونراهم اليوم وهم يتنادون من كل مكان، لسان حالهم كما أخبر الله عز وجل في كتابه المحكم الكريم في شأن الكافرين وندائهم لبعضهم البعض: {أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد}

[ص:٦]

، ولذلك تنادوا فأنفقوا الأموال لتجهيز الجيوش وحرب الإسلام والمسلمين، وهم اليوم يتنادون لذلك، وتصب الأموال بالملايين لتكون حربا وقنابل وقذائف تصب على رءوس المستضعفين من إخواننا في البوسنة أو الشيشان أو فلسطين أو الهند أو في أي مكان من بلاد الإسلام والمسلمين.

تضحية أهل الباطل بأرواحهم

لننظر إلى صورة أخرى لنرى كيف يكون الباطل مدافعا عن حقه وهو على باطل؛ حتى ندرك أن أهل الحق هم أولى بذلك.

قبل أن تبدأ المعركة كان من المتعارف عليه أن الراية دائما في بني عبد الدار من قريش، وكان النضر بن الحارث هو حامل رايتهم في يوم بدر، وقد وقع أسيرا في أيدي المسلمين، ووقوعه في الأسر دليل على الخزي والذلة والجبن والخور، فلما جاءت معركة أحد جاء أبو سفيان القائد العام لجيوش كفار مكة يخاطب بني عبد الدار حتى يثير حميتهم، ويحضهم على التضحية والثبات، فيقول لهم ويناديهم: يا بني عبد الدار! قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إن زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.

وما كانت العرب أبدا لترضى بالذل والصغار، فصاح بنو عبد الدار: أنسلم لك الراية؟ لترين غدا كيف نصنع؟ وقد ثبتوا ثباتا يعجب المرء منه، ويأخذ منه في الوقت نفسه درسا وعبرة.

كان حامل رايتهم طلحة بن أبي طلحة العبدري سيد بني عبد الدار، فلما بدأت معركة أحد خرج مختالا يطلب المبارزة، وكان فارسا من أشجع الشجعان الأبطال عند العرب، فهاب الناس لقاءه، ثم تقدم له الزبير بن العوام رضي الله عنه وأرضاه، فلم يلبث أن وثب الزبير وثبة عظيمة حتى كان معه على جمله، ثم صرعه من جمله فألقاه في الأرض، ثم ذبحه رضي الله عنه وأرضاه، فماذا صنع بنو عبد الدار بالراية التي أعطيت لهم؟ تقدم لها أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة ورفع الراية مرة أخرى، وصار ينادي: إن على أهل اللواء

حقا أن تخضب الصعدة أو تندقا وظل يقاتل حتى جاءه حمزة رضي الله عنه وأرضاه، أسد رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربه بسيفه البتار ضربة على كتفه خلع بها يده، حتى بلغ سيفه إلى رئته فقتله، ثم جاء بعد ذلك أخوه أبو سعد بن أبي طلحة العبدري ورفع اللواء مرة أخرى وهو ينادي ويشمخ بلسان بني عبد الدار مرة ثالثة، ثم جاءه بعد ذلك سعد بن أبي وقاص فرماه بسهم فأصاب حنجرته، فاندلقت لسانه فمات من حينه، ثم حمل اللواء بعد ذلك مسافع بن طلحة ابن أبي طلحة ثم جاءه سهم من عاصم بن ثابت رضي الله عنه فقتله، ثم حمل الراية أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ثم قتل، ثم جاء أخوه الثالث وهو الجلاس بن طلحة ثم قتل، ستة نفر من بيت واحد ثلاثة إخوة وثلاثة أبناء لواحد من هؤلاء الإخوة، ثم تنادى بنو عبد الدار فحمل الراية منهم أرطأة بن شرحبيل، فجاءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله، فحمل الراية شريح بن قارض منهم أيضا فقتل، ثم جاء أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري فقتل، ثم جاء ولد لـ شريح بن هاشم فقتل حتى فني في هذه الراية من بني عبد الدار عشرة منهم متواليين من كبارهم وزعمائهم وأشرافهم، فحمل الراية بعد ذلك غلام حبشي لبني عبد الدار يقال له: صواب، وأبلى في حمل الراية أكثر مما أبلى أسياده من بني عبد الدار أنفسهم، حتى قطعت يداه فبرك على الراية بصدره وعضديه، حتى قطعت عنقه وهو يقول: اللهم آعززت؟ أي: هل قمت بحقها؟ فانظر رحمك الله كيف كان أهل الباطل يتوقدون غيرة وحمية وجاهلية يثبتون ويضحون لأجل باطلهم وجاهليتهم الزائفة وأمجادهم الباطلة، وأهل الإسلام يريدون أن ينالوا الشرف اليوم دون أن يضحوا، أو أن يبذلوا، أو يثبتوا، ويريدونها هينة سهلة وهم ينامون ملء عيونهم، ويأكلون ملء بطونهم، ويضحكون ملء أشداقهم ما كان ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم!

صور من ثبات وتضحية أهل الإيمان

سنرى صور التضحية والثبات في سيرة الأصحاب رضوان الله عليهم، وها نحن نقف هذه الوقفات الأعظم والأجل والأجلى في أخذ الدرس والعبرة من صحب النبي صلى الله عليه وسلم.

أبو دجانة وعصابة الموت

هذا أبو دجانة نادى النبي صلى الله عليه وسلم في يوم أحد ورفع سيفه: (من يأخذ هذا السيف بحقه؟)، فتنادى له الصحابة رضوان الله عليهم وتسابقوا إليه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (من يأخذ هذا السيف بحقه؟ قالوا: وما حقه يا رسول الله! قال: أن يقاتل مقبلا غير مدبر)، فتراجع بعضهم لا جبنا وإنما خوفا أن يقصروا بالوفاء، فتقدم له أبو دجانة وقال: أنا يا رسول الله! وورد في بعض روايات السيرة أن الزبير تقدم له فمنعه منه النبي وأعطاه لـ سماك بن خرشة أبو دجانة رضي الله عنه، فلما أخذه عصب على رأسه عصابة حمراء فقالت الأنصار: عصب أبو دجانة عصابة الموت، وظل يمشي مشية مختالة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن)؛ لأنه موطن إعزاز للإسلام والمسلمين، فماذا صنع أبو دجانة رضي الله عنه؟ عندما أخذ السيف وبدأت المعركة صار ينادي: أنا الذي عاهدني خليلي ونحن في السفح لدى النخيل أن لا أقوم

الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول ثم فلق به هام المشركين، وشق صفوفهم، وخاض في الموت، وفي حمام الهلاك وهو يجندلهم عن يمينه وشماله، قال: حتى خلصت إلى فارس يخمش الناس خمشا شديدا فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا هو امرأة، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضرب به امرأة، وكانت هذه هند بنت عتبة رضي الله عنها فقد أسلمت فيما بعد وحسن إسلامها، كانت قد تلثمت وحاربت، وكانت من أشجع المحاربين في تلك المعركة، قال الزبير في بعض روايات السيرة: فرأيت فارسا لا يجد أحدا من المسلمين يزفف -أي: في آخر الرمق- إلا وأجهز عليه، فقلت: لعله يلقاه أبو دجانة، فما زلت أنظر حتى التقيا، ثم رفع أبو دجانة سيفه ولم يمضه، فنظرت فإذا هي هند بنت عتبة.

وهكذا فعل أبو دجانة رضي الله عنه.

أسد الله حمزة

نأتي إلى موقف آخر لـ حمزة أسد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذاك الذي كان الموت يتربص به في ميدان المعركة، لكنه مات غيلة وغدرا، كان رضي الله عنه قد فلق الهام، وقطع الرقاب، وشق صفوف المشركين شقا، ثم لم يصمد له أحد، ولم يستطع أحد أن يواجهه، حتى جاء وحشي رضي الله عنه وقد أسلم فيما بعد وصار من الصحابة، لم يكن عنده مهمة في هذه المعركة إلا أن يغتال غيلة وغدرا وخسة ودناءة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فظل يكمن في أماكن معينة حتى أصاب منه غرة فأنفذ فيه حربته فقتله لوقته رضي الله عنه وأرضاه.

قمة من قمم الثبات النبوي

أما المثل الأعظم الذي سنجعل وقفتنا معه؛ فهو المثل الذي تتقاصر دونه الأمثلة، والشجاعة التي تظهر كل شجاعة دونها بمراحل، شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم، القدوة العظمى في التضحية لهذا الدين والثبات عليه والدعوة إليه.

لما دارت الدائرة على المسلمين بعد نزول الرماة، وبعد أن كانت الجولة لهم، واشتد الاختلاط في صفوف المسلمين، وبدأت المعركة ينفرط عقدها، كان النبي عليه الصلاة والسلام في تسعة نفر من أصحابه، وكان من المتبادر إلى أذهان أهل الضعف والخور، أو إلى أذهان أهل السلامة أن من الأصلح له أن ينسحب بهذه الكوكبة حتى يرجع إلى المدينة، حتى يسلم أصحابه أو حتى يسلم هذه الأمة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان مضرب المثل والقدوة، كان علي بن أبي طالب يقول: كنا إذا احمرت الحدق، وحمي الوطيس؛ نتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان دائما هو المقدم عليه الصلاة والسلام، فماذا صنع في ذلك الموقف؟ صاح: (يا عباد الله! هلموا إلي أنا رسول الله)، وهو يعلم أن صوته سيسمع عند المشركين قبل المسلمين، وكان الأمر كما كان، لقد سمع المشركون هذا النداء، وكان يعلم النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا سيسمع وأن الجموع ستجمع، وأن الجيوش ستتوجه نحوه عليه الصلاة والسلام، لكنه أراد أن يبين للأمة أن الثبات في الجيوش بثبات قياداتها، وأن المضي بمضي كرامها، ولذلك نادى هذا النداء العظيم ليقول كما قال بعد ذلك في يوم حنين: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب فما كان له صلى الله عليه وسلم أن يتخلف عند مواضع التقدم، أو أن يتراجع في مواضع الثبات عليه الصلاة والسلام.

نادى هذا النداء ثم تجمعت الجيوش من حوله، فكانت صورة رائعة من صور تضحية الصحابة وفدائهم قل أن يجود التاريخ بمثلها مطلقا، لذلك تجمع أولئك القوم حول النبي عليه الصلاة والسلام، حتى شج وجهه الكريم، وسال دمه على جبهته، ودخلت حلقات المغفر في وجنتيه، وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم، حتى قال عليه الصلاة والسلام في هذا الموقف: (كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم؟).

درس لنا كيف ضحى النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق أجمعين؟ وبذل لأجل هذا الدين، وخاض غمار المعارك حتى سال دمه ولقي الموت؟ ونحن نريدها هينة سهلة، لو كانت هينة سهلة لكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان الإكرام للصلاح لكان أحق المكرمين هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان النصر يهدى لأحد لأهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه درس للأمة أنه لا يمكن أن ترفع لها راية، ولا أن تقوم لها قائمة، ولا أن ينتشر دينها، ولا أن تقوى قوتها وتعظم سيادتها إلا بالبذل والتضحية في سبيل الله عز وجل، والثبات على هذا الدين، فلذلك رسم النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصورة المشرقة الرائعة في الثبات والتضحية في سبيل الله عز وجل حتى كان موئلا تجمع حوله الصحابة من جديد، وانتهت المعركة نهاية مشرفة، وقد كان من الممكن أن تكون نهايتها أسوأ وأعظم شرا في الهزيمة على المسلمين، ولذلك ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل والقدوة من نفسه.

فإذا كان الرسول قد دمي وجهه، وكسرت رباعيته؛ فما على أحد بعده أن يصيبه في سبيل الله عز وجل ما هو أشد وأعظم وأنكى من هذا.

نسأل الله عز وجل أن يجعل لنا في رسوله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وأن يجعلنا ممن يتأسون بأصحابه رضوان الله عليهم، أقول هذا القول

وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

أنس بن النضر مثال الإقدام والثبات

فهذا أنس بن النضر رضي الله عنه وأرضاه يقول قبل المعركة، وهو الذي فاتته غزوة بدر، وفاته شرف تلك الغزوة العظيمة، يقول: لئن أشهدني الله عز وجل يوما كيوم بدر ليرين ما أصنع؟ قسم عظيم يبرز فيه هذا الصحابي الجليل أنه سيبذل وسيضحي وسيثبت ويقدم لهذا الدين ما تقر به أعين المسلمين، وما يرضى به عنه الله رب العالمين، يقول ذلك لا قولا رخوا وهو متكئ على أريكته، ولا يقول ذلك وهو في مجلس اللهو واللعب؛ وإنما يقوله مقسما بالله عز وجل في مواطن الجد والعز.

فلما جاءت المعركة وجاءت هذه الدائرة، مر أنس رضي الله عنه ببعض الأنصار وقد سرت شائعة قتل النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تجمع حوله المشركون وحصل ما حصل، فمر أنس ببعض الأنصار وقد قعدوا على هامش المعركة، وسألهم: ما بكم؟ قالوا: أما شعرت أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات؟ فقال كلمات تسجل في صحائف التاريخ، وتخلد في ذاكرة المسلمين، وتنقش في قلوبهم صورا محفورة لا تنسى من صور الثبات والتضحية، ومعرفة المنهج، ووضوح الرؤية عند الصحابة رضوان اللهم عليهم، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم! لئن مات النبي عليه الصلاة والسلام فما قيمة الحياة بعده؟ ولئن أهينت المقدسات، وانتهكت الأعراض، واعتدي على

الدين فما قيمة الحياة؟ هل يبقى المسلم في هذه الحياة ليأكل وينكح مثل بقية الأنعام والدواب والهوام؟ إن المسلم أجل وأرفع من أن تكون هذه غاياته، إنه صاحب مهمة ورسالة يقدم حياته كلها لأجل رسالته وإعلاء رايتها؛ فإن أصيب في دينه أو في رسالته؛ فإنه لا يمكن أن يرضى بالذل في هذه الحياة، ولا يمكن أن يبقى ساكنا وادعا، بل ينبغي أن يتحرق قلبه، وتتحرك جوارحه، وينطق لسانه، وتنطلق أقدامه، وتنفق أمواله، ولو اقتضى الأمر أن تبذل مهجته وروحه في سبيل الله عز وجل كما فعل الصحب الكرام رضوان الله عليهم، ونداء أنس رضي الله عنه ينادي كل المسلمين: قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم مضى أنس رضي الله عنه إلى ميدان المعركة، مضى إلى الغبار المثار، إلى السيوف التي تبرق في الضحى، إلى الأعناق التي تقطع، والدماء التي تسيل؛ فلقيه في أثناء مسيره سعد بن معاذ فقال له: إلى أين يا أبا عمرو؟! فسطر أنس رضي الله عنه أيضا الجواب بكلمات عظيمة: واها لريح الجنة، والله إني لأجدها دون أحد.

قوم أيقنوا بما أخبر الله عز وجل به، واستيقنوا بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلموا أن طريق مرضاة الله إنما تكون من طريق إعزاز دين الله عز وجل، ونصر عباد الله، وعدم رضى الذل لدين الله عز وجل.

واها لريح الجنة، والله إني لأجد ريحها دون أحد، ثم انطلق رضي الله عنه، قال سعد: فما استطعت أن أمضي مضيه، ولا أن أفري فريه، فمضى يقتل ويضرب حتى استشهد رضي الله عنه وفي جسمه بضع وثمانون ما بين ضربة سيف أو طعنة رمح أو موضع سهم، حتى ما عرف وجهه، وإنما عرفته أخت له ببنانة أو شامة.

لم يعرف من شدة ما أصابه من ضرب.

قال بعض الصحابة: فأحصيت ما به من ضربات فلم أجد في ظهره منها ضربة قط.

كان مقبلا غير مدبر، ولم تأته الضربات من ظهره؛ لأنه لم يول ولم يهرب، وإنما كان مضحيا ثابتا، ولذلك ضرب مثلا عظيما من أمثلة التضحية والثبات على دين الله عز وجل.

أمثلة وصور متفرقة للثبات

وعن ثابت بن الدحداح رضي الله عنه: أنه مر بفئة من الصحابة الأنصار من قومه، ورأى بعضهم وقد تردد وتذبذب وحار وتبلبل، فقال: يا معشر الأنصار! إن كان محمد قد مات فإن الله عز وجل حي لا يموت، قاتلوا على دينكم فإن الله مظهركم وناصركم.

هكذا كانوا يعرفون أن المسألة مسألة منهج ومبدأ، وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوسهم عظيما فدين الله عز وجل أعظم، وإن كان ارتباطهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وثيقا فارتباطهم بالله عز وجل أوثق؛ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكما أخبر ثابت أيضا في هذه المقالة: قاتلوا على دينكم فإن الله مظهركم وناصركم.

ثم مضى ثابت رضي الله عنه، ولم يكن هذا الكلام منهم كلاما عابرا، بل مضى وقاتل حتى استشهد رضي الله عنه وأرضاه.

وهذه صورة ثالثة: مر مهاجري بأحد الأنصار وهو يتشحط في دمه وقد أصيب إصابة قاتلة، مر به وقال متسائلا ومستغربا: يا فلان! أشعرت أن محمدا

قد قتل؟ فقال هذا الذي يفارق الحياة ويستقبل الموت: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم.

صحابة يتواردون على معنى واحد، مما يدلنا على أن تربيتهم وإيمانهم ومنهجهم كان واضحا وضوح الشمس في رابعة النهار، ولذا لم يتذبذبوا ولم يتراجعوا ولم ينخذلوا، وإنما كانت فترة من فترات الاضطراب والفوضى، ثم جاء نداء النبي صلى الله عليه وسلم، وجاءت القدوة المثلى لتجمع الصحابة رضوان الله عليهم، ولست بصدد ذكر الفداء والتضحية التي كانت من الصحب الكرام حول النبي صلى الله عليه وسلم، سبعة من الأنصار واحدا إثر آخر يقفون حول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، يفتدونه بصدورهم وظهورهم، يهلكون واحدا إثر واحد، وكان معه سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين فقضى الأنصار واحدا إثر الآخر حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أنصفنا أصحابنا)؛ لأنهم تقدموا وكان الآخرون لم يكتب الله عز وجل لهم الشهادة في ذلك الوقت، كانوا ينضحون عنه النبل، ويتلقون عنه السيوف، ويذبون عنه الأعداء، وضحوا وثبتوا ثباتا عجيبا في وقت كان الأصل أن يكون حالهم الفرار والهرب؛ فقد انفرط عقدهم ودارت الدائرة عليهم.

حنظلة الغسيل وشوقه إلى الجهاد

مثل أخير أقف عنده؛ لأنه مثل يبين لنا الصورة التي تعيقنا عن الانطلاق لرضوان الله عز وجل، والمضي لنصرة دين الله سبحانه وتعالى، والعمل لأجل نصرة هذا الدين في كل مكان.

هذا حنظلة بن أبي عامر، كان أبوه يسمى أبا عامر الراهب، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم أبا عامر الفاسق؛ لأنه كان من أشد أعداء الإسلام، أما ابنه حنظلة فقد كان صحابيا جليلا من خيار الصحابة، كان عرسه في ليلة أحد، ودخل على زوجته وهو حديث عهد بعرس -في يوم الدخلة التي نسميها اليوم- وإذا به يسمع المنادي يقول: يا خيل الله اركبي! يسمع النداء إلى الجهاد، يسمع الانتقال من أحضان المرأة إلى الانتقال إلى أحضان الموت، يسمع الانتقال من العيش الرغيد إلى العيش الشظف الشاق، فإذا به لا يفكر ولا يتردد ولا يضعف ولا يركن إلى الأرض، ولا تلفته الزوجة الحسناء، ولا البيت المهيأ، ولا العطر والطيب بل يشتاق شوقا عظيما، ويتحرك حركة هائلة، وينخلع من بيته وزوجته، ويمتطي فرسه ويمضي مع المجاهدين إلى سبيل الله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل}

[التوبة:٣٨]

، رسمها الصحابة صورا حية.

ما متاع الآخرة في الدنيا إلا قليل! عرفوا ذلك فاشتاقت له نفوسهم.

ومضى حنظلة مقاتلا ومجاهدا يشق الصفوف، كان يقصد أبا سفيان رضي الله عنه؛ لأنه كان قائدا لجيش المشركين في تلك المعركة حتى أوشك أن يصل إليه ويقتله، فإذا بـ شداد بن الأسود يأتيه من جنبه أو من خلفه فيضربه ضربة فيستشهد، فيخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن شأن حنظلة أنه كان لم يغتسل من الجنابة بعد، فإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (إن

الملائكة تغسل صاحبكم ما بين السماء والأرض) وتطهره لينتقل إلى الجنان وإلى الحور العين التي وعد الله عز وجل بها الشهداء.

التضحية والثبات درب السلف الأوائل

إن كل صور التضحية بالأهل والديار والأموال والأنفس ظهرت في هذه المواقف التي كانت للصحب الكرام رضوان الله عليهم، وخطوا لنا بكلماتهم في سمع الزمان كلمات تدوي لا تنسى، وخطوا لنا بأفعالهم صورا تحتذى وأمثلة يقتدى بها، نسوقها لنا، نحن الذين شغلنا بالدنيا، وأخلدنا إلى الأرض، وانصرفنا إلى مصالحنا وذواتنا، ونسينا أمتنا، ودیننا، ودعوتنا، ورسالتنا، إلا من رحم الله.

ونبث هذه المواقف أيضا إلى إخواننا المسلمين في البوسنة والشيشان وفلسطين وكشمير وكل مكان ليروا كيف كان النبي عليه الصلاة والسلام، فقد لقي مثل ما يلقون؟ وكيف كان موقفه وموقف الصحابة رضوان الله عليهم؟ إنها صور تبعث القوة في نفوس المؤمنين، وتعيد الحياة إلى القلوب التي ذوت فيها الحياة، وإلى السواعد التي صارت كالأيدي الشلاء؛ ينبغي لنا أن نجدد هذا المعنى في نفوسنا، إنه لا يمكن لنا أن نحيي معاني هذا الدين، وأن نعلي رايته دون أن نضحي في سبيل الله عز وجل، فإذا لم نستطع أن نضحي بشيء من أوقاتنا، وقليل من أموالنا، وبعض من جهودنا فكيف سنضحي يوما ما بأنفسنا في الجهاد في سبيل الله عز وجل، لابد أن نوطن أنفسنا على أن نكون على سنن الصحابة رضوان الله عليهم، أن نأخذ من هذه المدرسة النبوية هذه المعاني التربوية الإيمانية، وأن نحقق بعضا من الشعور أننا من أبناء هذه الأمة، ومنتسبون لهذا الدين، ونحظى بشرف

اتباع محمد صلى الله عليه وسلم: {قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}

[يوسف:١٠٨]

.

أتباع محمد حملة رسالة، وناشرو دعوة، ومجاهدون في سبيل الله عز وجل.

أتباع محمد ليسوا من أهل الدنيا، ولا من أهل الانشغال عن الآخرة، ولا العمل لذوات أنفسهم والانشغال بمصالحهم الذاتية الأنانية؛ هذه لها حدها وقدرها ومشروعيتها، لكن النفوس العظيمة والإيمان العظيم يدعو صاحبه إلى ما دعا إليه أنس بن النضر، وحنظلة بن أبي عامر رضي الله عنهما، وإلى ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم يوم أحد.

ينبغي أن نحيي هذه المعاني حتى نعالج هذا الفتور والخور والضعف والتعلق بالدنيا الذي في أنفسنا، فلئن كانت هذه صورة شامخة سامقة في حياة الصحابة ونحن في سفح سحيق فينبغي أن نحرك أنفسنا، نعم نحن بحمد الله اليوم في خير كثير، نعم قد دب الإيمان في القلوب، وشاع الإسلام في الصفوف، وتنادى المسلمون باسم الإسلام بوادر خير تحتاج إلى أن نرويها بتضحياتنا، ونغذيها بأرواحنا، ونحييها بكلماتنا ومواقفنا.

نسأل الله عز وجل أن يسخرنا لخدمة هذا الدين، وأن يجعلنا من نصرائه في كل مكان، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يسخرون أموالهم وجهودهم وأوقاتهم وأرواحهم في سبيل نصرة هذا الدين، وإعلاء راية الله في كل مكان.

اللهم إنا نسألك التقى والهدى والعفاف والغنى، وأن تجعلنا هداة مهديين، اللهم تول أمرنا، وارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، واغفر ذنبا، وبلغنا فيما يرضيك آمالنا، اللهم أبدل أمتنا من بعد ضعفها قوة، ومن بعد ذلتها عزة، ومن بعد فرقتها وحدة.

اللهم رد المسلمين إلى دينك ردا جميلا، اللهم خذ بنواصيهم إلى طريق الحق والسداد، وألهمهم الرشد والصواب، اللهم اجعلهم بكتابك مستمسكين، ولسنة نبيك صلى الله عليه وسلم متبعين، وفي آثار الصحابة سائرين، نسألك اللهم أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، برحمتك يا أرحم الراحمين! اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وارفع بفضلك كلمة الحق والدين، ونكس رايات الكفرة والملحدين، اللهم من أرادنا وأراد الإسلام بخير فوفقه لكل خير، ومن أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسوء فاجعل دائرة السوء عليه، واجعل تدبيره تدميرا عليه يا سميع الدعاء! اللهم عليك بسائر أعداء الدين فإنهم لا يعجزونك، اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا، اللهم استأصل شأفتهم، ودمر قوتهم، اللهم اجعل بأسهم بينهم، وفرق كلمتهم، واجعلهم غنيمة للمسلمين، اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم أبطل كيدهم، وأحبط مكرهم، واجعل الدائرة عليهم يا قوي يا عزيز يا منتقم يا جبار! يا من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء! اللهم إنا نسألك رحمتك ولطفك بعبادك المؤمنين المضطهدين والمعذبين والمشردين والمبعدين والأسرى والمسجونين والجرحى والمرضى في كل مكان يا رب العالمين! اللهم امسح عبرتهم، وسكن لوعتهم، اللهم إنهم حفاة فاحملهم، عراة فاكسهم، خائفون فأمنهم، جائعون فأطعمهم، مشردون فسكنهم، اللهم ارزقهم الصبر والثبات واليقين، اللهم اجعلهم من أهل الصبر على

البلاء والرضا بالقضاء، اللهم اجعل ما قضيت لهم زيادة في الإيمان واليقين ولا تجعله فتنة لهم في الدين، اللهم قرب نصرهم، وعجل فرجهم، اللهم إنا نسألك أن تثبتهم على الحق يا رب العالمين! اللهم إنا نسألك أن تخفف عنهم وأن ترفع عنهم يا أرحم الراحمين! اللهم واجعلنا في نصرة دينك وسخرنا في الدعوة إلى دينك، نسألك اللهم أن توفقنا لكل ما تحب وترضى، وأن تصرف عنا ما لا تحب ولا ترضى.

اللهم أصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل ولايتنا في من خافك واتقاك واتبع رضاك يا رب العالمين! اللهم اجعل عمل ولاتنا في هداك، واجعلهم مسخرين في رضاك برحمتك يا أرحم الراحمين! اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئنا رخاء وسائر بلاد المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين! عباد الله صلوا وسلموا على رسول الله استجابة لأمر الله: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}

[الأحزاب:٥٦]

، وترضوا على الصحابة الكرام، وخصوا منهم بالذكر ذوي القدر العلي، والمقام الجلي أبا بكر وعمر وعثمان وعلي، وعلى سائر الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك ورحمتك يا أرحم الراحمين! وأقم الصلاة! إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون.

نزول الوحي والأمر بالدعوة

أمة الإسلام: لقد بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل، بعثه الله على رأس الأربعين من عمره {فأول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بـ غار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود إلى ذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثل تلك الليالي؛ حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ -أي لست بقارئ، لأنه أمي صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب- قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم}

[العلق:١ - ٣]

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لـ خديجة وأخبرها الخبر وقال: لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان امرءا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب بالعبرانية، ويكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمي! اسمع من ابن أخيك،

فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أومخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي، ثم أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: {يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر}

[المدثر:١ - ٧]

{

.

مبادرة أبي بكر بالإسلام

قام صلى الله عليه وسلم، بأمر ربه تبارك وتعالى مبشرا ومنذرا، وكان أول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، وكان صديقا لرسول الله قبل النبوة، فلما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم، بادر إلى التصديق، بادر أبو بكر إلى التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقال:

]

[بأبي وأمي أهل الصدق أنت يا رسول الله! أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله]

[

وصار أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه من الدعاة إلى الإسلام حينئذ، فأسلم على يديه عثمان والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين.

مكايد قريش ضد الدعوة

مكث نبينا صلى الله عليه وسلم يدعو الناس سرا حتى نزل قول الحق تعالى: {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين}

[الحجر:٩٤]

فصدع بأمر الله تعالى، وجهر بدعوته، فجعل المشركون يسخرون منه، ويستهزئون به ويؤذونه بالقول وبالفعل، وكان أبو طالب يحوطه ويحميه، وتوفي أبو طالب، وتوفيت زوجته خديجة رضي الله عنها، ولقي من المشركين أشد المضايقة، والاستهزاء والسخرية، وكان من أشد الناس له إيذاء وسخرية عمه أبو لهب وزوجته اللذان قال الله فيهما: {تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد}

[المسد:١ - ٥]

واشتد أذى قريش بنبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ بهم من الدناءة والرذالة أن ألقوا عليه فرث الناقة وسلاها، وهو ساجد يتعبد لله بجوار بيته الحرام، ولم يقدر أحد على رفعه عنه، فلم يزل ساجدا حتى جاءت ابنته فاطمة رضي الله عنها، فألقته عن ظهره الشريف صلى الله عليه وسلم.

عرض الدعوة والإذن بالهجرة إلى المدينة

ولما رأى الاستهانة وكثرة الأذى له ولأصحابه، أمر بعضهم بالهجرة إلى الحبشة، وخرج إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام، وقابل رؤساءهم وعرض عليهم الإسلام، ورد عليه أهل الطائف ردا قبيحا، وأرسلوا غلمانهم وسفهاءهم يقفون في وجهه، ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه صلى الله عليه وسلم، ورجع عنهم ومد يد الافتقار إلى العزيز الحكيم، إلى الواحد القهار، إلى رب العزة والجلال، وتضرع إلى الله، أن ينصره وينصر الإسلام، فقيض الله له الأنصار، فبايعوه على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يمنعوه إذا قدم عليهم مما يمنعوا منه نساءهم وأبناءهم، عند ذلك وفي ذلك الحين أذن الله له بالهجرة إلى المدينة، وخلف على فراشه عليا رضي الله عنه وأرضاه، ليخرج إلى الهجرة، وقد عزمت قريش وعقدوا في دار الندوة، على أن يجمعوا من كل قبيلة شابا وليترصدوا لمحمد صلى الله عليه وسلم حتى يقتلوه قتلة واحدة، ويتفرق دمه بين القبائل، فجمعوا أمرهم،

ولكن الله أبطل كيدهم، فترصدوا له عند بابه ليفتكوا به إذا خرج، فخرج من بيته يذر على رءوسهم التراب وهو يتلو هذه الآية: {وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون}

[يس:٩]

وخرج رسول الله، ولما خرج وانتبهوا من عماهم ومن نومتهم التي أعماهم الله فيها، نظروا في البيت فإذا فيه علي رضي الله عنه وأرضاه، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج سالما من شرهم، فخرج هو وأبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، في شهر ربيع أول ، وقد اختفيا في غار ثور ثلاثة أيام، والمشركون يطلبونهم من كل وجه، حتى كانوا يقفون على الغار الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، فيقول أبو بكر {يا رسول الله! والله لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما}

الله أكبر.

استقبال أهل المدينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى المدينة بحفظ الله ورعايته، بعد أن خرجوا من الغار سالمين، فلما سمع الأنصار رضي الله عنهم بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعلوا يخرجون كل يوم إلى حرة المدينة ليستقبلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان اليوم الذي قدم

فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النور في إشراقته، فاجتمعوا إلى رسول الله وهم يرددون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع

أو كما قالوا رضي الله عنهم في استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محيطين به متقلدين سيوفهم، وخرج النساء والصبيان وكل واحد يأخذ بزمام ناقته يريد أن ينزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: {دعوها فإنها مأمورة}

حتى إذا أتت محل مسجده اليوم، وهو المسجد النبوي الشريف، فعندما وصلت ذلك المكان المبارك بركت فيه، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسكن دار أبي أيوب الأنصاري حتى بني المسجد وبنيت مساكنه.

التمكين للدين وموت الرسول صلى الله عليه وسلم

ثم لما استقر وأذن الله له بقتال الأعداء، وكان في المدينة ثلاث فرق من اليهود، فقاتلهم رسول الله وأجلاهم عن المدينة وطهر المدينة منهم صلى الله عليه وسلم، وقاتل الأعداء أعداء الدين من قريش وغيرهم الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، فأظهره الله عليهم، وأيده بنصره وبالمؤمنين، ولما أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة على المؤمنين، أراد الله أن يختاره إلى جواره في الرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فابتدأ به المرض في آخر شهر صفر وأول ربيع أول، وخرج إلى الناس عاصبا رأسه، وصعد المنبر، فتشهد وحمد الله وكان أول ما تكلم به بعد ذلك أن استغفر للشهداء الذين قتلوا في غزوة بدر وأحد، ثم قال صلى الله عليه وسلم: {إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله فلما قال صلى الله عليه وسلم تلك المقالة؛ فهمها أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، فبكى، وقال: نفديك بآبائنا وأمهاتنا وأنفسنا وأموالنا يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: على رسلك يا أبا بكر}

ثم قال: {إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلة الإسلام ومودته، ثم أمر أبا بكر أن يصلي بالناس}

ولما كان يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول اختاره الله لجواره، فلما نزل به الموت، جعل يدخل يده في ماء عنده ويمسح به وجهه ويقول: {لا إله إلا الله، لا إله إلا الله! إن للموت لسكرات}

ثم شخص بصره نحو السماء وكان يوصي في تلك الحالة الحرجة في آخر أنفاس يلفظها من الدنيا، وهو يقول: {الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم، الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم}

ثم شخص بصره نحو السماء، وقال: {اللهم في الرفيق الأعلى}

فتوفي صلى الله عليه وسلم، وخرجت روحه الشريفة، واضطرب الناس عند ذلك حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

]

[أما بعد: فمن كان يعبد محمدا، فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت ثم قرأ قول الله: {إنك ميت وإنهم ميتون}

[الزمر: ٣٠]

]

[

فاشتد بكاء الناس، وعرفوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات، فغسل وكفن صلى الله عليه وسلم في ثيابه، ودفن في حجرة عائشة رضي الله عنها ليلة الأربعاء، صلوات الله وسلامه عليه.

مات وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه دائما وأبدا وسرمدا إلى أن نلقاه على الحوض.

غزوة بدر

كانت معركة بدر الكبرى في اليوم السابع عشر من رمضان، وكانت معركة حاسمة غيرت مجرى التاريخ، وقد سمى الله تعالى ذلك اليوم بيوم الفرقان؛ لأنها فرقت بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وقد جعل الله تعالى فيها من العبر والدروس ما يجب على المسلمين أن يستفيدوا منها في واقع حياتهم، ولا يجعلوها ذكرى عابرة للاحتفال، والإكثار في المجالس من القيل والقال، بل علينا أن نستفيد منها في الأعمال والفعال.

يقول الله سبحانه وتعالى: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين * ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون}

[آل عمران:١٢٣ - ١٢٨]

.

معشر المسلمين! إن شهر رمضان ميدان للجهاد في سبيل الله، وليس للنوم واللهو واللعب كما يتصوره طائفة من البشر، إنه ميدان للجهاد المقدس الذي رفع شأن المسلمين وأقام دولة الإسلام الشامخة، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ففي مثل هذه الأيام بل في مثل يوم غد وقف الإسلام والكفر وجها لوجه، فكان النصر فيه للمسلمين الذين عاهدوا الله عز وجل على الجهاد في سبيله، والذين بذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم في سبيل الله.

لقد وقف الإسلام والكفر، فانتصر الإسلام نصرا خارقا، وحينئذ بالرغم من قلة العدد وكثرة العدو فلقد تعطلت كل نواميس الحياة، واختلت المقاييس المادية حينما وقف الإيمان بحق في وجه الكفر، لقد كانت موقعة بدر في مثل هذه الأيام، وانطلق موكب صغير في حجمه، عظيم في قدره، يريد أن يأخذ عيرا لقريش؛ ليسترد شيئا من أمواله التي خلفها هناك في مكة على غير استعداد ولا إرادة قتال، وحينئذ أصبح لا مناص من القتال حينما أقبلت قريش بخيلها وخيلائها: {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}

[التوبة:٣٢]

.

استشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وبدء المعركة

وحينئذ وقف عليه الصلاة والسلام يستشير قومه أصحاب العدد القليل في القتال، فيحبذ المؤمنون القتال، ويقوم زعيم المهاجرين المقداد بن الأسود رضي الله عنه فيقول: يا رسول الله! والله لقد آمنا بك وصدقناك، فلو خضت بنا برك الغماد لخضناها معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون}

[المائدة:٢٤]

، ولكن: اذهب فقاتل فإنا معك مقاتلون.

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال مرة أخرى: (أشيروا علي معشر القوم -وكأنه يريد أن يأخذ رأي الأنصار- فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه وقال: يا رسول الله! لعلك تعنينا، والله لقد آمنا بك وصدقناك، وعلمنا أن ما جئت به هو الحق، والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه وراءك -يشير إلى البحر الأحمر- ما تخلف منا رجل واحد، وإنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، وإنا لنرجو أن يريك الله منا ما تقر به عينك).

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقضى ليلة سبعة عشر من رمضان -أي مثل هذه الليلة- ما بين ساجد وراكع لله عز وجل، يمد أكف الضراعة ويستدر رحمة الله عز وجل، ويقول لربه: (اللهم أنجزني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصبة لا تعبد في الأرض).

وهكذا يكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة توسله بين يدي الله، حتى إذا كان الصباح وبدأت المعركة، كانت قد أعطت لونا جديدا من الجهاد لم يعرفه تاريخ الإنسان منذ القدم، لقد وقف هذا العدد القليل أمام ذلكم

الحشد المسلح، ثم ينتصر المسلمون في المعركة! ولقد وصفها لنا أحد أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يقول: والله إننا لنرى الرأس يطير، ونرى اليد تقطع، ولا نرى من الذي يفعل ذلك! لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب}

[الأنفال:١٢ - ١٣]

.

انتصار المسلمين في المعركة

انتهت المعركة، وانتصر الإسلام، وكان نصرا حاسما، وقامت هناك دولة الإسلام آمنة مطمئنة، عزيزة الجانب، وحينئذ كانت آية، كما قال سبحانه وتعالى: {قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار}

[آل عمران:١٣]

.

أخذ العبر والدروس من معركة بدر

إن هذه الآية تتجدد بعد كل فترة، فإذا ضعف المسلمون وتأخروا عن دينهم برزت تلك الآية، ولعل هذه الآية تبرز اليوم كثيرا ونحن نسمع مئات الملايين من المسلمين؛ بل نسمع عشرات الملايين من العرب يغلبون أمام عدد قليل؛ لأنهم تركوا الجهاد في سبيل الله بحق؛ لأنهم عصوا الله في أيام الأمن والرخاء، فيرفع الله سبحانه وتعالى يده عنهم أيام الشدة، إنها آية عظيمة، هذه الآية حينما نرى المسلمين اليوم يعيشون معذبين تحت مطارق الكافرين، بالرغم من تلكم الإحصائيات الضخمة أمام أعدائهم، وما عرف المسلمون الهزيمة في تاريخهم الطويل، اللهم إلا إذا تأخروا عن دينهم وركبوا المعاصي والآثام، أو تهاونوا بالواجبات.

إن المسلمين اليوم يستحقون النصر لو كان لهم قائد أعلى مثل محمد صلى الله عليه وسلم، يقضي ليلة المعركة ما بين ساجد وراكع لله، بعد أن يطهر مجتمعه من الفساد والانحراف والمعصية إنهم يستحقون نزول الملائكة اليوم لو كان فيهم قادة أمثال سعد بن معاذ والمقداد بن الأسود، لا يبالون بأن يركبوا الماء بدون سفينة في سبيل الله إنهم يستحقون هذا النصر لو كان فيهم جنود مثل عمير بن الحباب رضي الله عنه، الذي ما كاد يسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يقاتلهم اليوم مؤمن صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا وجبت له الجنة)، وكان يحمل تمرات في قرنه فيقذفها على الأرض ويقول: والله إنها لحياة طويلة إن أكلت هذه التمرات قبل أن ألقى الله عز وجل! أما اليوم وقد ركب الناس هذه المعاصي والآثام، وتدربت كثير من جيوش المسلمين في بلاد الكفر وركبوا هناك كثيرا من المعاصي،

وتدرب الناس عامة أو أكثرهم على موائد التلفاز والفيديو، وعلى الأفلام الخليعة التي غيرت مجرى حياتهم؛ فرفع الله عز وجل النصر عنهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون}

[آل عمران:١٢٣]

أنواع العذاب الذي صبر عليه المصطفى وأصحابه

لقد أرسل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، فمكث في مكة ثلاثة عشر عاما يدعو إلى الله، وكان يقول: (يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، قولوا: لا إله إلا الله تملكوا بها العرب والعجم، قولوا: لا إله إلا الله كلمة أشهد لكم بها عند الله)، ولكن القوم: {جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا}

[نوح:٧]

، وكانوا يسخرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب}

[ص:٥]

، وكانوا يقولون: (أهذا الذي يذكر آلهتكم}

[الأنبياء:٣٦]

، وكانوا يقولون: {أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا}

[الإسراء:٤٩]

ونحو ذلك من أنواع السخرية والاستهزاء بالنبي عليه الصلاة والسلام.

ولم يكتفوا بذلك فحسب، بل سلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه رضوان الله عليهم نوعين من الحروب المؤذية الفتاكة: النوع الأول: الحرب الاقتصادية، وذلك حين كتبوا تلك الصحيفة الظالمة الخاطئة، وعلقوها في جوف الكعبة: ألا يبيعوا للمسلمين ولا يبتاعوا منهم، وألا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم، فحوصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في شعب بني هاشم ثلاث سنوات حتى اضطروا إلى أن يأكلوا أوراق الشجر، يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كان أحدنا يضع كما تضع الشاة! فإذا أراد أحدهم أن يقضي حاجته فإنه يخرج منه كالبعر الذي يخرج من الشاة من شدة الجوع وقسوة العيش التي كانوا يعانونها، وكل ذلك من أجل أن يردوهم عن دينهم! النوع الثاني: حرب التصفية الجسدية، فقد كانوا يأتون بالرجل ويجوعونه ويعطشونه، يلقونه في حر الشمس، ويضعون على صدره الصخرة العظيمة، ويضربونه بالسياط، ويدفعونه إلى صبيان مكة يتقاذفونه، ويقولون له: واللات والعزى! لا ندعك حتى تكفر بمحمد وإله محمد، حتى إن بعض الصحابة فقد بصره من شدة التعذيب والأذى، مثل زنيرة جارية رومية فقدت بصرها، فقال المشركون: أذهب بصرها اللات والعزى،

فقالت رضي الله عنها: كذبتم وبيت الله! ما تنفع اللات والعزى وما تضر، ما أذهب بصري إلا الله وهو قادر على أن يرده إلي، فرد الله عليها بصرها.

وسمية بنت خياط أم عمار بن ياسر رضي الله عنهما كانوا يعذبونها، حتى دخل عليها عدو الله أبو جهل وأفحش لها في القول، وقال لها: ما أسلمت إلا من أجل الرجال، فما ردت عليه وما أجابت؛ لأنها من عباد الرحمن الذين قال الله فيهم: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}

[الفرقان:٦٣]

، فعمد عدو الله إلى حربته فطعنها في فرجها، فمضت شهيدة إلى ربها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم مواسيا لـ عمار: (قتل الله قاتل أمك يا عمار!).

وهكذا كان حال كثير من الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا يعانون الأذى الشديد والتعذيب من هؤلاء الكفار الفجار، ولم يسلم من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا النبي الكريم الذي ما آذى أحدا، ولا منه الناس كلمة لاغية، ولا لفظة فاحشة، فقد ناله عليه الصلاة والسلام شيء عظيم من الأذى، ومن ذلك: أنه كان ساجدا عند الكعبة، فقال المشركون بعضهم لبعض: من ينطلق إلى جزور بني فلان فيأتي بسلاها فيطرحه على رأس محمد، فانبعث أشقاهم وهو: عقبة بن أبي معيط، فأتى بالقذر والنتن وطرحه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد.

وأحيانا يكون ساجدا فيأتي المشركون بالتراب فيضعونه على رأسه.

وأحيانا يكون ساجدا صلوات ربي وسلامه عليه فيأتي أحد المشركين فيضع رجله على عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كادت عيناه تندران، أي: تخرجان.

ومرة أخرى يأتي الطارق إلى أبي بكر ويقول له: أدرك صاحبك فإن القوم قاتلوه، فيخرج أبو بكر رضي الله عنه الله عنه يجر إزاره، فيجد المشركين قد أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم: فهذا يشتمه، وذاك يصفعه، وهذا يجذبه، فجاء أبو بكر مسرعا فقال: {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم}

[غافر:٢٨]

، فردد الكلمات التي قالها مؤمن آل فرعون، فترك القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر يصفعونه ويضربونه، حتى كان عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بالنعل على وجهه، حتى دمى وجه أبي بكر، وأغشي عليه رضي الله عنه، وحمل إلى بيته وهو لا يعقل شيئا، فلما أفاق فتح عينيه فقرب إليه طعام، فكان أول كلام نطق به أن قال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: هو بخير يا أبا بكر! قال: والله! لا أذوق ذواقا ولا أطعم طعاما، حتى آتيه فأنظر إليه.

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مثل هذا الجو المشحون بالأذى والكيد والمكر، فأذن النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه بأن يخرجوا إلى الحبشة، فخرجوا رضوان الله عليهم بالهجرة الأولى، ثم خرجوا بالهجرة الثانية، وما زال الأذى يشتد ويتفاقم، وما زال الكيد يعظم حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأمر مداه، وذلك حين اجتمع القوم ليقتلوا

رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}

[الأنفال: ٣٠]

.

ومكر الله عز وجل هو بطشه وأخذه: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود}

[هود: ١٠٢ - ١٠٣]

.

فلما بلغ الأمر بالنبي عليه الصلاة والسلام ذلك المبلغ، أذن لأصحابه بأن يخرجوا إلى المدينة، وإلى خير دار مع خير جيران، وهذا كله بوحي وبأمر وبتدبير الله، فإن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي في التوراة والإنجيل هي: عبدي ونبيي محمد، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أميته حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا.

ومن صفته صلى الله عليه وسلم أنه مهاجر إلى أرض سبخة، كثيرة الحجارة بين حرتين.

وهذا الوصف ينطبق على المدينة المنورة التي كانت تسمى يثرب، فقد قيض الله عز وجل لبنيه صلى الله عليه وسلم جماعة أخيارا من الأوس والخزرج، فبايعوه البيعة الأولى وهي التي تسمى ببيعة النساء، والتي فيها الأمور الستة: ألا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصون رسول الله صلى الله عليه وسلم في معروف، هكذا كانت البيعة الأولى.

ثم كانت البيعة الثانية التي شهدها ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، وهي بيعة العقبة الثانية، وهي التي طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج مهاجرا إليهم على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وأولادهم، وأن يدافعوا عنه بكل ما أوتوا.

فلما ذهب النبي عليه الصلاة والسلام ليبايع القوم حرص عمه العباس أن يشهد تلك البيعة رضي الله عنه، وكان إذ ذاك على دين قومه، فقال للأنصار: (يا معشر الأوس والخزرج! إن محمدا ابن أخي منا حيث قد علمتم، قد فارق ديننا وعاب آلهتنا، لكنه منا بمقام عظيم، فإن كنتم مسلميه إن عضتكم الحرب فمن الآن فدعوه، فالتفت القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: يا رسول الله! اشترط لنفسك ولربك، فاشترط صلى الله عليه وسلم لربه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم، قالوا: فما لنا إن وفينا؟ قال: لكم الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل).

فبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم تلك البيعة العظيمة التي ترتبت عليها الهجرة المباركة.

عناية الله تعالى بأوليائه الصالحين

الدرس الأول: أن الله عز وجل كاف عبده، فهو لا يسلم أوليائه للأعداء، ولا يخذل الصالحين من عباده، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاط المشركون ببيته إحاطة السوار بالمعصم، وفي يد كل رجل منهم سيف صلت، يريدون أن يضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فيخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والقوم هكذا حالهم قد أحاطوا به ووقفوا على بابه، فيخرج ثابت القلب، رابط الجأش، مطمئن النفس، وهو يتلو صدر سورة ياسين، إلى قوله تعالى: {وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون}

[يس:٩]

، والقوم وقوف على بابه، وأبو جهل يتكلم مع إخوانه في الكفر، ويقول لهم: أيعدكم محمد أنكم إذا تابعتموه على دينه دخلتم الجنة، وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن، وإن عصيتموه وأبيتم دينه دخلتم النار! والله ما هذا إلا الكذب، فيأخذ رسول الله عليه وسلم حفنة من تراب ويضعها على رأس أبي جهل ومن معه وهم لا يعقلون شيئا، ويخرج من بينهم صلوات ربي وسلامه عليه تصحبه عناية الله.

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان ثم وهو في طريق الهجرة صلوات ربي وسلامه عليه لحق بهم سراقة بن مالك الفارس المغوار، والبطل الضرغام، فدعا عليه النبي عليه الصلاة والسلام، فساخت قوائم فرسه في الأرض، قال سراقة: فعلمت أنه ممنوع، أي: أنني لن أصل إليه بأذى، ولن أستطيع أن أمد إليه يدا بسوء، فطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقيل عثرته، فدعا صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل فنهض فرسه، وبشر

سراقة بأنه سيلبس سواري كسرى بن هرمز، وحقق الله عز وجل تلك النبوءة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فتحت بلاد فارس واستولى المسلمون على أسورة كسرى بن هرمز، جاء سراقة فذكر عمر بن الخطاب بما قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فألبسه عمر سواري كسرى، وقال: الحمد لله الذي كسا سراقة بن مالك -أعرابيا بوالا على عقبيه من بني جعشم- سواري كسرى بن هرمز، وحمد عمر رضي الله عنه ربه على هذه الآية العظيمة.

فالمؤمن المقيم على طاعة الله العامل بأمر الله يطمئن إلى أن الله ناصره؛ لأنه لا يخلف الميعاد، وقد قال: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}

[غافر:٥١]

.

فنصر الله للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

الأخذ بالأسباب

الدرس الثاني: ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخذ بالأسباب، ومن هذه الأسباب: أنه أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يبتاع راحلتين قبل الهجرة.

وأنه صلى الله عليه وسلم أخذ بعوامل السرية، حتى أنه لما جاء ليخبر أبا بكر بأمر الهجرة جاءه في ساعة منكرة متنكرا بردائه فقال: (يا أبا بكر! أخرج من عندك.

فقال: يا رسول الله! إنما هو ابنتاي) فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد أمره بأن يهاجر.

ومن الأخذ بالأسباب: أن رسول الله صلى الله عليه خرج من غير الطريق الذي اعتاده الناس من أجل أن يلبس على القوم، ويعمي عليهم الآثار.

ومن الأخذ بالأسباب: أنه استأجر عبد الله بن أريقط -رجلا من بني الديل- هاديا خريتا خبيرا بالصحراء؛ من أجل أن يدلهم على الطريق.

ومن الأخذ بالأسباب كذلك: ما صنعته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما من إعداد الزاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه.

ومن الأخذ بالأسباب: ما كان من أمر دخولهما في غار ثور ومكثهما فيه أياما ثلاثة إلى أن خف الطلب، وأيس القوم من اللحاق بهما، وعند ذلك خرجا.

والسؤال الذي يطرحه كثير من الناس في أيامنا هذه فيقولون: ما بالنا نحن مسلمون مؤمنون مصدقون برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فإن أهل الكفر قد تحكموا في رقابنا، وأديلوا علينا، وطاروا فوق رءوسنا، لم ونحن مسلمون وهم كفار؟! فنقول: لأننا لم نأخذ بأسباب القوة التي أمرنا أن نأخذ بها، وانتظرنا أن ينزل علينا نصر من السماء دون أن نعد العدة، ونأخذ

الأهبة، ونعمل بأسباب القوة، ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أنه موعود من الله بأن يحفظه، وأن يكلؤه ويرعاه إلا أنه أخذ بالأسباب.

إنزال الله الطمأنينة والسكينة على قلب المؤمن في الشدائد

الدرس الثالث من دروس الهجرة النبوية: طمأنينة القلب، وسكينة النفس التي يرزقها الله عز وجل عبده المؤمن عند الشدائد، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو بشركما قال الله عز وجل: {قل إنما أنا بشر مثلكم}

[الكهف: ١١٠]

- وهو في الغار، والقوم قد وقفوا على رأس الغار، وأبو بكر رضي الله عنه بحكم بشريته تدمع عيناه، ويرجف فؤاده حذرا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: (ما شأنك يا أبا بكر؟! قال: يا رسول الله! لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، فقال صلى الله عليه وسلم -تلك الكلمة الخالدة-: يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما)، وخلد الله تلك المقولة في القرآن فقال: {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم}

[التوبة: ٤٠]

.

وهنا قد يحلو لبعض أهل الشغب أن يقولوا: بكاء أبي بكر دليل على ضعف إيمانه.

نقول: لا والله حاشاه ذلك، أولا: أن أبا بكر لو كان خائفا على نفسه فلا حرج، فالقرآن الكريم ذكر عن موسى أنه خاف، وموسى نبي مكلم، قال الله عز وجل عنه: {فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين}

[القصص:٢١]

أي: من فرعون، وموسى عليه السلام قال مثل ذلك لفرعون: {ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين}

[الشعراء:٢١]

.

ثانيا: والله ما خاف أبو بكر على نفسه، وإنما كان خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودليل ذلك: أن أبا بكر في طريق الهجرة -كما تواترت الأخبار- تارة كان يمشي أمام النبي عليه الصلاة والسلام، وتارة خلفه، وتارة عن يمينه، وتارة عن شماله، فقال له صلى الله عليه وسلم: (ما تصنع يا أبا بكر؟! قال: يا رسول الله! أتذكر الرصد -أن هناك إنسانا يرصدك- فأمشي أمامك، وأتذكر الطلب -الذي كان يطلبك- فأمشي من ورائك، وأتذكر العدو عن يمينك وعن شمالك، فأمشي عن يمينك وعن شمالك، فقال له صلى الله

عليه وسلم: يا أبا بكر! أتحب أن ينزل بك المصاب دوني؟! قال: نفسي لنفسك الفداء يا رسول الله).

ثم لما وصلوا إلى غار ثور قال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم: على رسلك، فدخل رضي الله عنه وتحسس جبال الغار، فما وجد فتحة إلا قطع من ردائه وسدها، حتى أمن الغار، ثم طلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يدخل.

أهذا صنيع من يخاف؟! لا والله! ثم لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم الغار توسد قدم أبي بكر، فلدغته عقرب عدة مرات وهو لا يتحرك من مكانه؛ كراهة أن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما استيقظ عليه الصلاة والسلام ورأى ما في أبي بكر من الأذى والألم تفل على موضع الألم فكأنه لم يكن.

لذلك ينبغي لنا أن ننزل أبا بكر منزلته وأن نثبت له ما أثبته القرآن من الفضل، فقد أثبت له الصحبة قال تعالى: {إذ يقول لصاحبه}

[التوبة: ٤٠]

.

فهناك نبي الله موسى عليه السلام قال: {قال كلا إن معي ربي سيهدين}

[الشعراء: ٦٢]

، وهنا الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله معنا) معي ومعك يا أبا بكر! أسأل الله عز وجل أن يرزقنا الاقتداء بـ أبي بكر، وأن يرزقنا محبته، وأن يوفقنا لنصنع ما صنع.

اتخاذ الصاحب الطيب

ومن الدروس المستفادة: اتخاذ الرفيق الصالح الطيب المؤمن التقي، كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي).

فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الهجرة، ويريد منه أن يأذن له في الهجرة، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول له: (يا أبا بكر! اصبر، لعل الله يجعل لك صاحبا)، فيغيب أبو بكر أياما ثم يأتي يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم حاله كحال العبد الصالح الذي قال: {وعجلت إليك رب لترضى}

[طه:٨٤]

، ويريد أن يعجل بالهجرة إرضاء لله عز وجل، فكان صلى الله عليه وسلم يقول له: (اصبر، لعل الله يجعل لك صاحبا)، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر وقال له: (يا أبا بكر! إن الله أمرني بالهجرة، قال أبو بكر: الصحبة الصحبة يا رسول الله! -أي: اجعلني لك صاحبا ورفيقا- فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: بلى يا أبا بكر! فبكى رضي الله عنه).

تقول أمنا عائشة: والله! ما ظننت أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي في ذلك اليوم.

الدعوة إلى الله بالأقوال والأفعال

ومن الدروس المستفادة من هذه الرحلة: أن العبد الصالح يدعو إلى الله عز وجل بأقواله وفعاله وسمته وهيئته، وهذا الأمر نستدل عليه من مرور النبي صلى الله عليه وسلم بخيمة أم معبد الخزاعية، وهي امرأة برزة جلدة، تحتبي بفناء الخيمة، وتطعم وتسقي من يمر بها، فإذا مر بها قوم مسافرون فإنها تطعمهم وتسقيهم، وهي امرأة معروفة بالكرم، فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه صاحباه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعبد الله بن أريقط فسلم عليها صلى الله عليه وسلم، ثم سألها: (هل من لبن فنشربه؟ أو لحم فنشتريه؟ فقالت له المرأة: فداك أبي وأمي، لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، والشاة عازب، ولا حلوبة في البيت)، تقول له: لو كان عندنا طعام أو شراب ما نحوجكم إلى أن تطلبوا، وإنما نكرمكم ابتداء، لكن لا حلوبة في البيت، أي: ليس في البيت شاة تحلب، ثم إن الشاة التي تحلب هي في المرعى عازب، أي: بعيدة، (فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في ستر الخيمة -أي: في جانب الخيمة- فقال لها: ما هذه الشاة؟ قالت له: خلفها الجهد عن الغنم -يعني: هي مريضة- فقال لها: هل بها من حلب؟ -أي: هل فيها شيء يحلب؟ - قالت له: هي أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: فداك أبي وأمي! إن كان بها حلب فاحلب -يعني: طالما أنك لا تريد أن تصدق فجرب-، فدعا صلى الله عليه وسلم بإناء يربض الرهط -يعني: إناء كبير- فسمى النبي صلى الله

عليه وسلم الله عز وجل، ومسح على الضرع فتفاجت -أي: هذه الشاة فرجت بين رجليها-، فحلب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجا حتى علته الرغوة، ثم دفع الإناء إلى المرأة -إلى أم معبد أولا- فشربت ثم سقى صاحبيه، ثم سمى الله عز وجل وشرب آخر القوم عليه الصلاة والسلام، ثم حلب فيه ثانية، فشربوا عللا بعد نهل، ثم حلب فيه صلى الله عليه وسلم وخمره وقال: ارفعي هذا لـ أبي معبد، ثم سلم وانصرف، قال: فما لبثت إلا قليلا، حتى أقبل أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوقن هزالا لا نقي فيهن، فقال: ما هذا اللبن -يا أم معبد - والشاة عازب، ولا حلوبة في البيت؟! قالت: لا والله! إلا أنه مر بنا رجل مبارك)، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما تلا عليها قرآنا، ولا ألقى عليها خطبة، وإنما وصفته بالبركة بما رأت من حاله وكلامه وسمته وهيئته وفعاله صلوات ربي وسلامه عليه، فوصفته بأنه رجل مبارك، وكان من خبره كيت وكيت، فقال أبو معبد: صفيه لي يا أم معبد! فقالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، أبلج الوجه، في عينه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي عنقه سطع، وفي صوته صهل، وسيم قسيم، لم تعبه ثجلة، ولم تزريه صعلة، أجمل الناس وأحلاهم من بعيد، وأحسنهم وأبهاهم من قريب، إذا تكلم علاه البهاء، وإذا سكت علاه الوقار، كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له أصحاب يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر ابتدروا أمره، محفود محشود، غير عابس ولا مفند، فقال لها زوجها: والله! إنه لصاحب قريش الذي تطلب، ولأجهدن حتى ألحق به، ولأتابعنه على دينه.

أي: بمجرد أن رأوا من حاله وأفعاله صلوات ربي وسلامه عليه هذا الحال قال: لأجهدن حتى ألحق به، ولأتابعنه على دينه، فرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة المباركة يعلمنا أن الإنسان يدعو إلى الله عز وجل بقوله وفعله وسمته وهيئته صلوات ربي وسلامه عليه.

ومما يستفاد من هذه القصة: حسن رعايته صلى الله عليه وسلم لأصحابه في السفر، فلما حلب الشاة ما شرب اللبن صلى الله عليه وسلم، وما آثر نفسه، بل آثر أصحابه رضوان الله عليهم، وسقى أم معبد من أجل أن تزداد يقينا، وأن تعلم حقا أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لابد للنصر من بذل وتضحية

ومن الدروس المستفادة من هذه الرحلة المباركة: أن دين الله عز وجل لا ينتصر إلا ببذل جهد، ولا ينتصر إلا بعناء، ولا ينتصر إلا ببذل المال والنفس والوقت، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج مع أبي بكر رضي الله عنه، ويسلك طريقا غير الطريق، ويعاني عليه الصلاة والسلام من الحر والقر والشمس وظلمة الليل، ويستغرق في الطريق خمسة عشر يوما، وهو مع هذا كله مطارد، صلوات الله وسلامه عليه، فيطارده المشركون، ويعرضون العروض لمن يأتي به حيا أو ميتا، كل هذا والنبي صلى الله عليه وسلم واثق بربه، فبذل هذا الجهد، وترك الأهل والمال والوطن، وترك بناته صلوات ربي وسلامه عليه في مكة، وخرج مهاجرا إلى الله يريد أن ينتصر لدين الله، فهذه غايته، وهذا هدفه صلوات الله وسلامه عليه.

ولذلك لا يظنن ظان بأن الدين ينتصر والناس قعود، وهم في هجوع، والناس في كسل ونعاس، فلا يجتهد الواحد في أن يطلب علما، ولا أن يحصل عملا، بل إن بعض الناس يمن على ربه أنه يصلي الفريضة في وقتها، وبعضهم يمن على ربه أنه يخرج الفريضة من ماله، وبعض الناس يمن على ربه أنه يأمر بالمعروف أو ينهى عن منكر، أو يدعو إلى هدى، أو يقيم أمر الله في بيته، فلا ينتصر الدين بمثل هذا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحقق أنواع الجهاد كلها، فيجاهد نفسه، ويجاهد الشيطان والهوى، ويجاهد بماله،

ويجاهد الكفار والمنافقين، وكل هذه الأنواع من الجهاد مارسها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك قرن الله عز وجل بين الهجرة والجهاد في قوله: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض}

[الأنفال:٧٢]

، فإيمان وهجرة وجهاد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى في هذه الأنواع كلها.

حسن اختيار الله لأصحاب رسول الله

ومما يستفاد من هذه الهجرة المباركة: أن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم أصحابا هم خير الأصحاب، وأنصارا هم خير الأنصار، فقد مضى معنا خبر أبي بكر وماذا كان يصنع في طريق الهجرة، وإلى أن وصل صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأبو بكر معه كالخادم الأمين، يقول الأنصار رضي الله عنهم: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومعه أبو بكر وأكثرنا ما رآه، ما عرفنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أبا بكر حتى زال الظل وجاءت الشمس، فخلع أبو بكر رداءه وظلل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلمنا أن الجالس هو رسول الله وأن القائم عليه هو أبو بكر.

وكذلك علي رضي الله عنه نام في فراش النبي عليه الصلاة والسلام وقد أحاطت به الأخطار، وأسماء بنت أبي بكر، يأتي جدها أبا قحافة فيقول لها: لقد خدعكم أبوكم في نفسه وماله، فتعمد رضي الله عنها إلى حجارة تجمعها، ثم تأخذ بيدي جدها وقد كان أعمى، فيتحسس تلك الأحجار، تقول له: ترك لنا مالا كثيرا، من أجل أن تطمئنه وتصرف الوسواس عنه.

ويأتي عدو الله أبو جهل يدق باب أبي بكر ويقول: يا أسماء! أين أبوك، تقول: ما أدري، فيلطمها عدو الله لطمة حتى يطير قرطها، أي: الحلق الذي في أذنها.

وقل مثل ذلك في عامر بن فهيرة، وفي عبد الله بن أبي بكر، وهؤلاء جميعا رضوان الله عليهم، كانت لهم قدم صدق في الإسلام.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الاقتداء بهم، والسير على نهجهم.

الهجرة سنة الأنبياء

إن هجرة نبينا لم تكن بدعا في سيرة الأنبياء والمرسلين، بل لقد هاجر الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كإبراهيم خليل الرحمن على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فبعد أن دعا قومه إلى الله وقال: {إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين}

[العنكبوت:٢٥]

.

وأبى قومه أن يؤمنوا به، قال تعالى: {فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون}

[العنكبوت:٢٤]

.

بعد هذا قال إبراهيم عليه السلام: {إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم}

[العنكبوت:٢٦]

.

فترك تلك الأرض التي أبى أهلها إلا الكفر والإلحاد والشرك به جل جلاله، وهاجر إلى الله عز وجل.

وكذلك نوح عليه السلام لما دعا قومه إلى الله فأبوا الإيمان بالله تعالى، فقال له قومه: {قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين}

[الشعراء:١١٦]

.

قيل المراد بالمرجومين: المخرجين.

وكذلك لوط عليه السلام قال له قومه: {لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين}

[الشعراء:١١٦]

.

وكذلك نبي الله موسى عليه السلام لما خاف على نفسه من فرعون اللئيم أن يصيبه بسوء خرج من مصر، كما قال الله عز وجل: {فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين}

[القصص:٢١]

.

وهذا المعنى أيضا عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول للدعوة، وذلك عندما نزل عليه جبريل في غار حراء، فرجع عليه الصلاة والسلام إلى خديجة رضي الله عنها يرتجف فؤاده، فطمأنته رضي الله عنها بتلك الكلمات العذاب: كلا والله يا ابن العم! لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وما اكتفت رضي الله عنها بذلك، بل أخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان شيخا كبيرا قد قرأ الكتاب الأول، وله علم بالعبرانية لغة أهل الكتاب، فقص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى، فقال له ورقة بن نوفل: إنه الناموس الذي كان ينزل على موسى عليه السلام، وقال له: ليتني فيها جذعا

إذ يخرجك قومك، فقال له النبي صلى الله عليه الصلاة والسلام متعجبا: (أومخرجي هم؟)، أي: هل قومي يجرءون على إخراجي وأنا فيهم من أنا! أنا الصادق الأمين! وأنا العزيز الكريم! وأنا البر التقي؟! فقال له ورقة -وهو العارف العالم-: نعم؛ ما أتى أحد بمثل ما جئت به إلا عاداه قومه وأخرجوه؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام كان متهيئا لذلك اليوم، ولكنه كان ينتظر أمر الله عز وجل، وكل نبي من الأنبياء كانت الهجرة له دينا وديدنا، وسبيلا لنشر الدعوة، وإحقاق الحق، والانتصار لدين الله عز وجل، وهداية الناس، والتماس الأرض التي ينتشر فيها الخير والنور.

وجوب الهجرة لمن ليس متمكنا من إقامة دينه

الهجرة ليست خاصة بفئة معينة، ولا بقوم من الناس معلومة، وإنما هي شريعة ماضية إلى يوم القيامة، ولذلك أثنى الله عز وجل على المهاجرين الذين يتركون الأوطان التي ألفوها، والبلاد التي نشأوا فيها، يخرجون منها طلبا للهداية، وللصلاح، وللسداد، وللانتصار لدين الله عز وجل، يقول ربنا سبحانه في سورة البقرة: {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم}

[البقرة:٢١٨]

.

ويقول في سورة الأنفال: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض

والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير}

[الأنفال:٧٢]

.

ويقول في سورة التوبة: {الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون}

[التوبة:٢٠]

.

وفي سورة النساء نجد أن الله عز وجل يعد هؤلاء المهاجرين بسعة الأرزاق، وسلامة الأبدان، وطمأنينة القلوب، فيقول الله سبحانه: {ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما}

[النساء:١٠٠]

، وقال تعالى: {والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم}

[الأنفال:٧٤]

.

إن هذا المعنى الذي تضمنته هذه الآيات المباركات، والذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (لا يقبل الله من مشرك عملا بعدما أسلم أو يفارق المشركين) أي: حتى يفارق المشركين، وهذا المعنى نحن المسلمون اليوم بحاجة إلى تأكيده ومعرفته، فإن كثيرا من المسلمين ممن يقيمون في ديار الكفر، أو الأرض التي تكون الغلبة فيها للكفار والشريعة السائدة هي شريعة الكفر، والأرض التي لا يسمع فيها أذان، ولا يسمع فيها قرآن، ولا يؤمر فيها بمعروف، ولا ينهى فيها عن منكر، وتمارس فيها الفواحش جهارا نهارا في الشوارع والطرقات، وأعني بذلك بلاد أوروبا وأمريكا وما أشبه ذلك، فكثير من المسلمين هنالك -نسأل الله السلامة العافية- رضي بأن يعطي الدنية في دينه، وأن يرضى بالذل، وأن يعيش في ذلك الجو المأفون والمليء بالموبقات والفواحش والكبائر والذنوب والمعاصي، والتي لا يسمع فيها لآمر ولا لناهي، فهو قد رضي بأن يقيم في تلك الأرض من أجل دراهم معدودة أو من أجل رغد عيش يطلبه أو نحو ذلك من الأسباب.

إن هؤلاء توعدهم الله عز وجل في القرآن، فقال سبحانه: {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا}

[النساء:٩٧]

.

ثم استثنى ربنا جل جلاله برحمته وعدله وفضله من ألجأتهم الضرورة، ومن أحاطت بهم الحاجة الملحة، فقال سبحانه: {إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا}

[النساء:٩٨ - ٩٩]

.

فهؤلاء ممن أقاموا؛ لأنهم لا يجدون دارا يلجأون إليها، ولا بلدا يهاجرون إليها، أو كانوا مستضعفين لكونهم نساء أو أطفالا، فهؤلاء عسى الله أن يعفو عنهم.

يقول الضحاك بن قيس رحمه الله ورضي عنه في هذه الآية: نزلت هذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع.

فمن كان مقيما في تلك الأرض، وزوجه وبناته لا يستطعن أن يرتدين الحجاب الشرعي، أو كان مقيما في تلك البلاد، ولكن لا أمر له على أولاده من بنين وبنات لم تجز له الإقامة، والآن بعض الناس يقيم في بلاد أوروبا وأمريكا وهو لا يستطيع أن يأمر ابنته ولا أن ينهاها، وربما تأتي ابنته بصديقها إلى البيت، ولو تكلم اتصلت للشرطة، وكذلك لو أنه وبخ ولده أو ضربه فللولد أن يشكوه، وبعد ذلك تأتي الشرطة وتنتصف من هذا الأب الذي أراد أن يربي ولده، فهناك شعار الحرية المرفوع يكفل لكل إنسان أن يفعل ما يريد، فلا يستطيع والد أن يوجه ولده ولا أن يأمره، ولا أن ينهاه، ولا أن يربيه، فمثل

هؤلاء نقول لهم: الهجرة واجبة عليكم، نعم أن بلاد المسلمين أغلب الشريعة فيها غائبة، وأحكام الله فيها إما مبدلة، وإما ليست مطبقة، أو تطبيقها ضعيف، لكن نقول: ما زالت بلاد المسلمين الحياء فيها غالب، والأدب فيها ظاهر، وما زلنا في بلاد المسلمين يملك الوالد أن يوجه ولده وأن يأمره وينهاه، وتملك الأم أن تربي ابنتها على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ولا يتدخل في ذلك أحد، لكن كثيرا من الناس -نسأل الله السلامة والعافية- استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، رضي بلعاعة من الدنيا، ففتن بتلك المظاهر وبتلك البهارج، لكنه لم يفكر في هذه القوارع التي نزلت في كتاب الله عز وجل، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين المشركين)، وقال صلى الله عليه وسلم: (من أقام بين المشركين فقد برئت منه الذمة).

فهذا الحكم واجب علينا أن نتذكره حين نتدارس هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نسأل الله سبحانه أن يحيينا مسلمين، وأن يتوفانا مسلمين، وأن يلحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.

استماعه صلى الله عليه وسلم للشعر واستزادته منه

رابع المواقف أيها المؤمنون: ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ردفه الشريد بن سويد الثقفي، كما روى مسلم في الصحيح من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه، وأبوه هو الشريد بن سويد الثقفي صحابي جليل، هذا الصحابي الجليل ردف النبي صلى الله عليه وسلم أي: أن النبي عليه

الصلاة والسلام ركب معه على الدابة، فقال له عليه الصلاة والسلام: (هل تحفظ من شعر أمية بن أبي الصلت شيئا؟ قال: قلت: نعم يا رسول الله! قال: هيه) أي: يطلب، قال: (فأنشدته بيتا، فقال: هيه، فأنشدته بيتا، فقال: هيه، فأنشدته بيتا فقال: هيه؛ حتى أنشدته مائة بيت).

ولغويا كلمة هيه: اسم فعل عند النحاة، فإذا بقي على البناء على الكسر ولم تنونه فأنت تطلب الاستزادة من نفس الحديث، وإن نونته قلت: هيه فأنت تطلب الزيادة من أي حديث؛ لأن التنوين قرين التنكير، فأنت تطلب الزيادة من أي حديث، لكن إن قلت هيه من غير تنوين فإنك تطلب الزيادة من نفس الحديث، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يقولها من غير تنوين ويريد الزيادة من نفس شعر أمية بن أبي الصلت.

يقول الشريد رضي الله عنه: فأسمعته مائة بيت، وقد قال صلى الله عليه وسلم كما في مسلم أيضا من حديث أبي هريرة قال: (أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، وقال: (وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم)، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل) فكلمة باطل هنا ليست ضد الحق، فإن الدين حق، وهو خلا الله، والنبي صلى الله عليه وسلم حق وهو غير الله، والجنة حق وهي غير الله، والنار حق وهي غير الله، لكن قصد لبيد بقوله: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، أي: مضمحل، فالعرب تطلق على الشيء المضمحل بأنه باطل.

قال شراح الحديث: وإن النبي صلى الله عليه وسلم قال على كلمة لبيد بأنها أصدق كلمة؛ لأنها وافقت أصدق كلام، وأصدق الكلام هو كلام الله، والله يقول في القرآن: {كل من عليها فان}

[الرحمن:٢٦]

.

فهذه المقولة الشعرية لـ لبيد قبل الإسلام وافقت قولا قرآنيا وهو قول ربنا جل ذكره: {كل من عليها فان}

[الرحمن:٢٦]

، فلهذا قال صلى الله عليه وسلم: (ألا كل ما خلا الله باطل) هي أصدق كلمة قالها شاعر.

ولبيد: هو لبيد بن ربيعة العامري أحد شعراء المعلقات، ومطلع معلقته: عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها وقد أدرك الإسلام وأسلم، وهو الوحيد من شعراء المعلقات الذين أدركوا الإسلام، فأسلم رضي الله عنه وأرضاه، وقد عمر طويلا، وكان يقول: ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد وهنا مسألة وهي: أن الإنسان يحاول قدر الإمكان إذا مرت عليه أحاديث المعصوم صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بها، وأن يصنع ما استطاع أن يصنعه من هديه صلوات الله وسلامه عليه، فقد قدر لي عام ١٤٠٩ أن كنت مع الشيخ محمد المختار الشنقيطي الفقيه الواعظ المدرس في الحرم النبوي الشيخ الجليل المعروف.

وفي تلك الفترة كنت طالبا في التعليم، وكنت في الدرس فمات أحد الطلاب فرثيته بأبيات، فلما كنت مع الشيخ وفقه الله ذكرت له الأبيات، وموضع الشاهد من القضية كلها: أنه كان كلما قلت له بيتا كان الشيخ حفظه الله ووفقه يقول: هيه؛ تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فزاد والله إجلالي ومحبتي وإقبالي للشيخ وإن كنا نحبه من قبل، فوقتها من الله عليه

بالتوفيق أن تذكر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أنشد شعرا قال هذه الكلمة.

والمقصود أيها المبارك: أن من أعظم ما تتقرب به إلى ربك: أن تحاول أن تتأسى بسيد الخلق وأشرفهم صلوات الله وسلامه عليه، ولن تصل إلى مرادك من الله بطريق ولا بسبيل أقوم ولا أكمل من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله يقول وقوله الحق: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}

[الأحزاب:٢١]

.

مدح بعض الشعراء للنبي صلى الله عليه وسلم

نعود هنا إلى عالم الشعر على وجه الإجمال، فالنبي صلى الله عليه وسلم عظمه ربه في القرآن، فمهما قال الشعراء في حقه عليه الصلاة والسلام فغاية الأمر أنهم ينبئون عن عظيم إيمانهم ومحبتهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام، أما هو صلى الله عليه وسلم كفى بتزكية القرآن له تزكية، فقد زكى الله بصره: {ما زاغ البصر وما طغى}

[النجم:١٧]

، وزكى الله لسانه: {وما ينطق عن الهوى}

[النجم:٣]

، وزكى الله قبله: {ما كذب الفؤاد ما رأى}

[النجم:١١]

، وزكى الله أذنه: {ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم}

[التوبة:٦١]

، وزكاه الله جل وعلا جملة: {وإنك لعلى خلق عظيم}

[القلم:٤]

، فهو عليه الصلاة والسلام ليس في حاجة لأن يطريه أحد من الخلق، لكنه إذا أطراه أحد ومدحه وفق ضوابط الشرع فإنما ينبي ذاك عن علم ذلك الرجل بالدين، وحبه لرسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم.

وكان حسان رضي الله عنه وأرضاه من أعظم من مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء هذه هي من همزيته المشهورة رضي الله عنه وأرضاه.

ويقولون: إن أعظم ما قيل في مدح النبي صلى الله عليه وسلم قول حسان: وأجمل منك لم تر قط عين وأسمح منك لم تلد النساء خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء كما مدحه عبد الله بن رواحة وكعب بن زهير، ثم تسابق الناس من شعراء المسلمين عبر التاريخ الإسلام في مدح رسول الهدى ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه، فقال شوقي رحمة الله تعالى عليه في همزيته الشهيرة: خلقت لبيتك وهو مخلوق لها إن العظائم كفؤها العظماء فإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء وإذا ملكت النفس قمت ببرها ولو أن ما ملكت يداك الشاء وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما جاء الخصوم من السماء قضاء وإذا بنيت فخير زوج عشرة وإذا ابتنيت فدونك الآباء وإذا حميت الماء لم يورد ولو أن القياصر والملوك ظماء أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في دين الإله سواء فلو أن إنسانا تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء يا أيها المسرى بها شرفا إلى ما لا تنال الشمس والجوزاء يتساءلون وأنت أطهر هيكل بالروح أم بالهيكل الإسراء بهما سموت مطهرين كلاهما روح وريحانية وبهاء تغشى الغيوب من العوالم كلما طويت سماء قلدت سماء أنت الذي نظم البرية دينه ماذا يقول وينظم الشعراء والمصلحون أصابع جمعت يدا هي أنت بل أنت اليد البيضاء صلى عليك الله ما صحب الدجى حاد وحنت بالفلا وجناء واستقبل الرضوان في غرفاتهم بجنان عدن آلك السمحاء وقال في البائية غفر الله له ورحمه: سلوا قلبي غداة سلا وثابا لعل على الجمال له عتابا ويسأل في الحوادث ذو صواب فهل ترك الجمال له صوابا أخا الدنيا ترى دنياك أفعى تبدل كل آونة إهابا فمن يغتر بالدنيا فإني لبست بها فأبليت الثيابا لها ضحك القيان إلى غبي ولي ضحك اللبيب إذا تغابى جنيت بروضها وردا وشوكا وذقت بكأسها شهدا وصابا فلم أر مثل حكم الله حكما ولم أر مثل باب الله بابا أبا الزهراء

قد جاوزت قدري بمدحك بيد أن لي انتسابا فما عرف البلاغة ذو بيان إذا لم يتخذك له كتابا مدحت المالكين فزدت قدرا فلما مدحتك اقتدت السحابا وأحسن من هذا كله قول الله: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم}

[التوبة:١٢٨]

.

تجمع الأحزاب لحصار الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه

ما أشبه الليلة بالبارحة! فانظر إلى الحصار الذي فرضه المشركون من قريش وغطفان ومن تابعهم من القبائل العربية المختلفة ومن ظاهرهم من يهود بني قريظة، ومن بقي من يهود بني النضير في خيبر ومن دعا منهم في جمعه هؤلاء الأحزاب، حتى اجتمعوا جميعا لحصار المسلمين في المدينة وجاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، جاءوا حول المدينة من جهاتها، وعند ذلك اشتد الكرب ونجم النفاق وظن الناس الظنون المختلفة، فظن المنافقون أن الإسلام مستأصل، وأن الإسلام يزول، وظن المؤمنون بالله عز وجل أن ينجز لهم وعده سبحانه وتعالى، وأن يفي بوعده لهم ولنبيه عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: {ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما}

[الأحزاب:٢٢]

.

اجتمع هؤلاء الأحزاب بمؤامرة اليهود كما اجتمعت الأحزاب من قبلهم على رسلهم، اجتمع هؤلاء الأحزاب رغم كونهم قبل ذلك كانوا لا يتفقون على رأي، بل كان بعضهم يقاتل بعضا ويسبي بعضهم بعضا، حتى اليهود كانوا قبل الإسلام يتقاتلون ويتحاربون، كما قال عز وجل عنهم فيما بين من فضائحهم بعد ذكر أخذ ميثاقهم: {وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون}

[البقرة:٨٤ - ٨٥]

.

فبين سبحانه وتعالى أنهم كانوا يتقاتلون فيما بينهم، ولكن عندما جاء الإسلام اجتمعوا على حربه، وهكذا المشركون ما كان لبعضهم على بعض سيادة ولا إمارة، بل كانت العرب متفرقة على الدوام متقاتلة متحاربة؛ لكن عندما ظهر الإسلام اجتمعوا على حربه! وهكذا إذا نظرت فإنك تجد اليهود والنصارى أعداء على مر العصور، ولكنهم في زماننا يجتمعون وينفق بعضهم على بعض، ومعهم من لا دين لهم كذلك من بقايا الشيوعيين والمشركين عباد الأوثان، وعباد الشياطين والعياذ بالله من ذلك، فاجتمعوا كلهم على حرب الإسلام، ومعهم المنافقون، فكلهم أعداء، ومع ذلك يجتمعون إذا ظهر الإسلام.

ألم تكن طوائف من المنافقين تتفاخر عبر عشرات السنين بأنها حرب على اليهود وعلى الاستعمار وعلى الغرب، ثم بعد ذلك تنحني الجباه وتركع الرءوس، وربما سجدوا لأعداء الله سبحانه وتعالى أو كادوا يفعلون، والعياذ بالله من ذلك.

هكذا تجتمع الأحزاب ضد الإسلام وأهله، وتنفق الأموال ببذخ وسخاء، وتخرج الخزائن من هذه الأموال ممن لا يجدون طعاما يأكلونه ولا ملابس يلبسونها، فإذا وجه أعداء الله رصاصهم وقنابلهم لأهل الإسلام أغدقت الأموال بما لا يحصيه أحد منا، ولا يراه، وإنما يحصيه رب العباد سبحانه وتعالى.

فهكذا تتحزب الأحزاب وهكذا يكذبون الرسل.

وقد قدر الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الاجتماع لحرب الدين يكاد يصل إلى غايته، ففي يوم الأحزاب أوشك الكفار أن تتم خططهم بنقض يهود بني قريظة العهد وباتفاقهم معهم على أن يقتحموا المدينة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون كانوا ثلاثة آلاف في أول حفر الخندق، ولكنهم نقصوا حتى وصلوا إلى سبعمائة بعد ذلك، وانسحب من في قلبه النفاق الأكبر، أو في قلبه شعبة منه، حتى وصف حذيفة رضي الله عنه ليلة الأحزاب بأنها أشد ليلة عندما كانوا ثلاث مائة مقاتل مع النبي عليه الصلاة والسلام، فانخفض عدد المسلمين الثابتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العشر.

قصة ليلة الأحزاب

يقول حذيفة رضي الله عنه: نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا واحدا واحدا في ليلة ما رأيت أظلم منها ولا أبرد منها قط، والريح شديدة حتى كان أحدنا لا يكاد يرى أصبعه.

قال حذيفة: فتقاصرت في الأرض كراهية أن أقوم.

فلا يريد أن يظهر لكي يكلفه النبي صلى الله عليه وسلم بعمل لشدة الجوع وشدة البرد، يقول: ليس علي ما أتقي به البرد إلا برد لامرأتي لا يبلغ ركبتي.

وأرسل عثمان بن مظعون ابن أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم إلى الحصون ليأتي لهم من هناك بطعام وثياب، فيأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن من لقيت من أصحابي فأمرهم فليرجعوا، يقول عبد الله بن عمر: فما رأيت أحدا إلا أمرته بالرجوع، فلا يلوي أحد منهم عنقه.

أي: كانوا لا يلتفتون إلى كلام عبد الله ولا يسمعونه، بل كل متجه إلى بيته لا يريد أن يكون مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

فعشر المسلمين فقط هم الذين ثبتوا وهم الذين بقوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذه هي الخلاصة التي أعز بها الله عز وجل الدين في المشارق والمغارب.

وبعد ذلك صلى النبي عليه الصلاة والسلام صلاة طويلة ثم قال: (قد حدث في القوم حدث، فمن يأتيني بخبر القوم وله الجنة) فضمن له صلى الله عليه وسلم الرجوع ووعده بالجنة.

ونحن نعلم حب الصحابة الشديد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وامتثالهم لما يرغب فيه قبل أن يأمر، ولكن كانت القلوب قد بلغت الحناجر، وكان

الخوف والبرد الشديد والحصار والكرب في غايته، وكاد المشركون أن يصلوا إلى غايتهم، {وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه}

[غافر:٥]

.

فلما طلب النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيه رجل بخبر القوم على أن يكون رفيقه في الجنة ما قام رجل، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم قال: (من يأتيني بخبر القوم ويكون رفيقي في الجنة) فلم يقم أحد ثم كرر الثالثة، ثم قال: (قم يا حذيفة) وذلك لثقته به، لأنه يعلم أنه لن يعصي له الأمر المباشر، وإن كان الأمر المستحب يحتمل أن يكون متروكا عندهم.

قال حذيفة: فما كان من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بد، قال: (اذهب فأتني بخبر القوم ولا تحدث شيئا حتى تأتيني)، وفي رواية مسلم: (فلا تذعرهم علي).

فذهب حذيفة رضي الله عنه، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا له بقوله: (اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته).

قال: (فكأنما أمشي في حمام، وما خلق الله في قلبي من الخوف والقر قد خرج فلا أجد منه شيئا).

فدخل المعسكر ونظر إلى أبي سفيان يدفئ يده ويضعها على خاصرته ويقول للناس: لينظر كل أحد منكم من جليسه.

وكأنه توقع أن يوجد في القوم من ليس منهم، فأخذ حذيفة رضي الله عنه بيد جليسه وقال: (من أنت؟ فقال: فلان بن فلان فترك يده)، وذلك لكي لا يسبقه الرجل بقوله: من أنت.

فقال لهم أبو سفيان: ما أنتم بدار مقام، إني مرتحل فارتحلوا.

وذلك حين رآهم والريح تفعل بهم ما تفعل لا تترك لهم نارا، ولا يستقر لهم قدر، ولا تقوم لهم خيمة، وجنود الله عز وجل تفعل بهم ما ذكر الله سبحانه في قوله: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا}

[الأحزاب:٩ - ١١]

.

والعاقبة للمتقين

وصلت المحنة إلى أن المشركين كادوا أن يفتكوا بالإسلام كله، كما قال تعالى: {وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه}

[غافر:٥]

، وهكذا يقدر الله سبحانه وتعالى أن تجتمع أحزاب الكفر من المشارق والمغارب حتى ظن الكثيرون أن الإسلام مستأصل، وأن الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله ومن يهفوا إلى نصرة الدين مستأصل ذاهب لا يمكن أن تقوم له قائمة بعد ذلك اليوم ولكنها اللحظات التي تسبق نقطة التحول.

منازلة اليهود من حصونهم

إن هذا الابتلاء وتلك الزلزلة كانت هي اللحظات التي تسبق نقطة التغير التام، ففي تلك الليلة انصرف المشركون وانصرفت قريش وانصرفت غطفان وبقي يهود بني قريظة في الخوف والرعب، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم وحاصرهم، ثم أنزلهم الله من حصونهم على أمره فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم ونساءهم وأخذ أموالهم وأرضهم.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام بعد انهزام الأحزاب (الآن نغزوهم ولا يغزوننا) وقد كان الأمر كما قال عز وجل: {ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا}

[الأحزاب:٢٥ - ٢٦]

فريقا تقتلون من الرجال المقاتلين وتأسرون فريقا من النساء والصبيان {وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها}

[الأحزاب:٢٧]

.

فمن كان يظن أن أهل المدينة في يوم من الأيام سيدخلون حصون بني قريظة المنيعة وسيطئون هذه الأرض مالكين لها؟! فذلك بفضل الله عز وجل بسبب الغدر وبالتألب والتحزب الذي كان.

إن الله سبحانه يجعل الكفرة ينقضون العهود والمواثيق التي عاهدوا المؤمنين عليها، كل ذلك يقدره الله بالحق، ويتركهم سبحانه يؤذون المؤمنين وينتهكون حرماتهم ويسفكون دماءهم وهي عند الله عز وجل غالية وذات حرمة عظيمة، لكنه يتركهم يفعلون ذلك بعلمه وحكمته وتحت سلطانه وقدرته، وهو عز وجل الملك، وهو الشهيد على ما يفعلون؛ وذلك لكي يزدادوا إثما ويستحقوا أنواع العقاب بقدرته عز وجل.

وما أكثر ما كان يثني النبي صلى الله عليه وسلم على الله عز وجل بهزيمته الأحزاب وحده، فكان يقول: (وهزم الأحزاب وحده)، حيث إنه لم يتحرك المؤمنون لقتال يومئذ، وعندما رجع حذيفة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إليه القر والبرد والخوف كما كان، فوضعه بين رجليه وغطاه ببرد بعض نسائه عليه الصلاة والسلام الذي كان يصلي فيه، فأخبره بخبرهم ورحيلهم.

قدوم حليمة إلى مكة تلتمس رضيعا

ومن مرضعاته صلى الله عليه وسلم: حليمة السعدية، فقد جاء في حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قصة عجيبة فيها عبر في رضاع النبي عليه الصلاة والسلام، قال: لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت حليمة بنت الحارث في نسوة من سعد بن بكر يلتمسن الرضعاء بـ مكة، قالت حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي قمراء.

قمراء: اللون الأبيض المائل إلى الخضرة.

خرجت حليمة التماس الرضعاء في مكة، وكان أهل مكة يرغبون في جعل أولادهم في البادية حيث يرتضعون من نسائها، ويمكثون فترة في ذلك الجو النقي فيصلب عودهم ويشتد، ويرتضعون من نسائها المعروفات بجودة الحليب واللبن، فلذلك كانوا يرغبون فيه، وكان النساء في البادية يبتغين أجرا من وراء إرضاع الأولاد الصغار لمثل أهل مكة التجار، فجاءت حليمة السعدية مع نسوة لها من أوائل من خرجن من مكة لابتغاء الرضعاء فيها.

قالت: "فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي قمراء، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزى -أحد بني سعد بن بكر- ثم أحد بني ناظرة قد أدمت أتاننا".

الأتان طبعا هي أنثى الحمار، ومعنى أدمت: يعني حدث في ركب الدابة جروح دامية باصطكاكها، إذا الأتان الدابة فيها جراح.

"ومعي بالركب شارف والله ما تبض بقطرة لبن".

والشارف: هي الناقة المسنة لا يسيل منها قطرة لبن، لا يخرج منها شيء من اللبن أبدا.

"في سنة شهباء".

يعني: مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر، فخرجت حليمة بأسوأ حال من مضارب قومها في البادية إلى مكة، أتان قد تجرحت أرجلها من اصطكاكها ببعضها من الهزال والضعف، وناقة مسنة ما يخرج منها قطرة لبن واحدة، في سنة مجدبة قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد.

"ومعي ابن لي والله ما ينام ليلنا".

طيلة الليل يبكي؛ لأنه جائع.

"وما أجد في يدي شيئا أعلله به، إلا أنا نرجو الغيث، وكانت لنا غنم فنحن نرجوها، فلما قدمنا مكة، فما بقي منا أحد إلا عرض عليها محمد فكرهته".

كل النساء مع حليمة عرض عليهن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؛ لكن كل واحدة تأبى أن تأخذه من هؤلاء المرضعات من أهل البادية، لماذا؟ - فقلنا: "إنه يتيم، وإنما يكرم الظئر ويحسن إليها الوالد" -فهذا يتيم وأبوه ميت وإذا أخذناه فمن يعطينا؟! فقلنا: "ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده -إذا كان الأب ميتا- فكل صواحبي أخذ رضيعا -كل واحدة أخذت ولدا آخر- فلما لم أجد غيره رجعت إليه وأخذته، فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره".

وليست رغبة في الولد بل لأنه لا يوجد غيره- فقلت لصاحبي -وهو زوجها الذي معها، والعرب تطلق على الزوج صاحبا، قال الله تعالى: {وصاحبته وأخيه}

[المعارج:١٢]

فالصاحبة أيضا الزوجة.

"فقلت لصاحبي: والله لآخذن هذا اليتم من بني عبد المطلب فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئا -أرجع إلى البادية بدون ولد أرضعه أمام الناس- فقال: قد أصبت، قالت: فأخذته، فأتيت به الرحل، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرحل فأمسيت وقد أقبل ثدياي باللبن" -هذا أول شيء، مجرد ما أتت به رحل قومها (المكان الذي نزلوا به) أقبل الثديان باللبن.

حتى أرويته وأرويت أخاه الذي جئت به يبكي، وقام أبوه إلى شارفنا -أبوه صاحب اللبن، قام إلى تلك الناقة المسنة يلمسها- فإذا هي حافل باللبن -مليئة- فحلبها فأرواني وروي، فقال: يا حليمة تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمن -ما لم يكن يدور بالبال أعطانا أكثر- قالت: فبتنا بخير ليلة شباعا، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

يعني: من قبل ما ننام الليل من بكاء الصبي الذي معنا، الآن هذا الصبي المبارك جاء وأشبعني وأشبع زوجي، وأشبع الولد وأشبع الناقة، وجاء الخير والبركة.

"ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء -أنثى الحمار التي أصابتها الدماء من اصطكاك رجليها- فحملته معي، فوالذي نفس حليمة بيده لقطعت الركب حتى أن النسوة ليقلن: أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله حملت عليها غلاما مباركا".

لاحظوا أيها الإخوة النبي صلى الله عليه وسلم منذ صغره، حتى ولادة النبي عليه الصلاة والسلام ملفتة للنظر، وطفولته ملفتة للنظر، الله عز وجل يقيض

من الأحداث ما يسلط به الضوء على النبي عليه الصلاة والسلام منذ طفولته كأن هذا الغلام سيكون منقذ البشرية.

حلول البركة بحليمة وأسرتها

قالت حليمة: فخرجنا فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرا، حتى قدمنا والبلاد سنة -يعني قحط- ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يريحون فتروح أغنام بني سعد جياعا، وتروح غنمي شباعا بطانا حفلا.

أي: كانت سنة قحط لكن لما جئنا بالمولود كان رعاة بني سعد يذهبون كلهم ويرجعون جياعا، ما وجدوا خيرا ولا كلأ ولا شيئا، وأغنامي ترجع شباعا بطانا حفلا، أي: شبعانة سمينة، الثدي محمل باللبن.

فنحتلب ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزى؟ -وهو زوج حليمة - وغنم حليمة تروح شباعا حفلا وتروح غنمكم جياعا، ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، اجعلوا غنمكم تذهب مع المكان الذي تسرح فيه غنمهم، ربما يصير لكم مثلما حصل لهم، فيسرحون معهم فما تروح إلا جياعا كما كانت وترجع غنمي كما كانت حفلا سمانا.

قالت: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشب شبابا ما يشبه أحد من الغلمان، يشب في اليوم شباب الغلام في الشهر يعني: ينمو ويزيد في اليوم ما ينموه الغلام العادي في شهر، ويشب في الشهر شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة أنا وأبوه فقلنا: والله لا نفارقه أبدا ونحن نستطيع.

يعني: انتهت مدة الرضاعة سنتين حيث كان أهل البادية يأخذون غلمان أهل مكة إلى البادية سنتين للرضاعة؛ ويشب الغلام قويا في ذلك الجو الصافي النقي.

ومع انتهاء السنتين تعلقت حليمة بالولد تعلقا شديدا، وقالت هي وزوجها: والله لا نفارقه أبدا ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه قلنا: أي ظئر! والله ما رأينا صبيا قط أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه من وباء مكة وأسقامها فدعينا نرجع به حتى تبرئي من داءك، فلم نزل بها ملحين مقنعين حتى أذنت، فرجعنا به فأقمنا أشهرا ثلاثة أو أربعة، بعد هذه الأشهر الثلاثة أو الأربعة حدثت حادثة غريبة للغاية.

حادثة شق الصدر

قالت حليمة: فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه من الرضاعة في بهم له، النبي عليه الصلاة والسلام نشأ مع الغنم منذ صغره يلعب مع البهم، إذ أتى أخوه يشتد، جاءنا أخوه الذي كان يلعب معه، وأنا وأبوه في البدن؛ مع الجمال، فقال: إن أخي القرشي أتاه رجلان عليهما ثياب بيض فأخذاه وأضجعاه فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه يشتد لإدراك الغلام الذي شق بطنه، فوجدناه قائما قد امتقع لونه -تغير- فلما رآنا أجهش إلينا وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضممناه إلينا، فقلنا: مالك بأبي أنت؟ فقال: أتاني رجلان وأضجعاني فشقا بطني وصنعا به شيئا ثم رداه كما هو، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، أي: حدث له شيء مكروه، الحقي بأهله فرديه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه،

فلما رأتنا أنكرت شأننا، لأنهم ألحوا عليها وطلبوا منها في البداية ولما سمحت لهم يرجعون بعد ثلاثة أو أربعة أشهر بهذه السرعة وقالت: ما أرجعكما به قبل أن أسألكماه وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قد قضى الله رضاعه وسرنا ما نراه، وكنا نئويه كما تحبون أحب إلينا، فما اقتنعت آمنة فقالت: إن لكما شأنا فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها، لما رأى الصبي الآخر من قدوم اثنين وشق صدره وبطنه وصنعا به شيئا ورداه كما هو، فقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأنا أفلا أخبركما خبره؟ إني حملت به فوالله ما حملت حملا قط كان أخف علي منه، ولا أيسر منه، ثم أريت حين حملته أنه خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل بـ بصرى -قصور بصرى البعيدة عن مكة - نور عظيم أضاء أعناق الإبل بـ بصرى، ثم وضعته حين وضعته فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدا بيديه على الأرض رافعا رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما، فقبضته وانطلقنا.

الحديث رواه ابن حبان والطبراني والبيهقي وأبو يعلى من طريق ابن إسحاق وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية السيرة، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه، ورجاله ثقات، ولكثير من مقاطع الحديث شواهد تقويها فلعله يكون حسنا بشواهده.

وأما حادثة شق الصدر فقد جاءت من أحاديث أخرى، ومن ذلك حديث عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه: (أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زادا، فقلت: يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم،

فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني إلى القفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء وثلج، فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة، فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه، فخاطه وختم عليه بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفه، واجعل ألفا من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي، أشفق أن يخر علي بعضهم -يعني هو رجح بهم وصاروا فوقه- فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني، وفرقت فرقا شديدا، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيته، فأشفقت علي أن يكون ألبس بي -جن تلبس بي- قالت: أعيذك بالله، فرحلت بعيرا لها فجعلتني أو فحملتني على الرحل وركبت خلفي، حتى بلغنا إلى أمي -التي هي آمنة - فقالت حليمة: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيته فلم يرعها ذلك، فقالت لي: رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام) الحديث رواه أحمد والحاكم في المستدرك، والطبراني في الكبير، والدارمي في المقدمة باب: كيف كان أول شأن النبي صلى الله عليه وسلم، جميعا من طريق بقية حدثني بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن ابن عمرو السلمي، وبقية صرح بالتحديث، وإذا روى عن بحير فهو معتد به ومقبول وموثق، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع: إسناد أحمد حسن، والحديث لا زال له شواهد.

حادثة شق الصدر وقعت مرة أخرى في الإسراء والمعراج فكانت هذه من الصغر تمهيدا للرحلة السماوية، إعدادا أرضيا للرحلة السماوية، حادثة شق الصدر إذا حدثت مرتين.

وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإسراء، ورواه غيره أيضا من حديث أنس: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لئمه -الخياطة وهذه هي العملية الجراحية القديمة- ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه فقالوا: إن محمدا قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره) الحديث رواه مسلم.

وهذا أيضا يثبت قصة شق الصدر في صحيح مسلم والنبي عليه الصلاة والسلام صغير، ولما كان يلعب مع الغلمان حدث له حادثة شق الصدر، ولما كان قبل الإسراء والمعراج حدثت حادثة الشق الثانية.

دروس من رعي الأغنام في حياة الأنبياء

وكان عليه الصلاة والسلام في صغره أيضا قد رعى الغنم تهيئة للرعي الأكبر بعد ذلك، وتمهيدا لسياسة الرعية الأعظم، فهو تعلم في سياسة الغنم تمهيدا لسياسة الرعية الكبرى بعد ذلك، فقد جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة) رواه البخاري.

فالنبي عليه الصلاة والسلام اشتغل وهو صغير، وأجر نفسه، وكان يأخذ قراريط من أهل مكة أجرة مقابل أن يرعى أغنامهم.

ومن حديث جابر رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ مر الظهران نجني الكباث فقال: عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه) وهذا النوع من الثمار لا يعرفه إلا من كان يرعى الغنم؛ لأنه من الأشياء التي تنبت في البراري وفي الأماكن التي ترعى فيها الأغنام، ولذلك قالوا له: (وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: نعم، وهل من نبي إلا رعاها؟!).

وهذا من إعداد الله للأنبياء، لأن سياسة الغنم ورعي الغنم تتطلب المحافظة عليها وصونها وحراستها عن الذئاب، وإيرادها المراعي الحسنة، والذي يتأمل يجد تشابها كبيرا بين رعي الغنم وسياسة الرعية يكون فيه إعداد الراعي في محافظته وحراسته، وجلب المنافع للغنم، وهذه تحتاج إلى علاج، وهذه تحلب، وهذه فيها جرب، وهذه عرجاء، وهذه ضعيفة وهزيلة، ولذلك رعاية الغنم فيها إعداد للاهتمام بالرعية والإشفاق على الرعية وحراستهم، وأن يأتي بالرعية إلى المكان الذي فيه فائدة لها، ويحرس الرعية عن كل ضار، وفيه تعليم وتحمل المسئولية.

فتح مكة

خطورة تجهيل الأمة المسلمة بتاريخها

أحبتي في الله: إننا اليوم على موعد مع يوم كريم من أيام شهر رمضان، إنه يوم أعز الله فيه دينه، ونصر فيه عبده، وأعز فيه جنده، واستنقذ فيه بيته الحرام، وبلده الأمين من أيدي الكفار والمشركين، إنه يوم الفتح

الأعظم الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به نور الأرض ضياء وابتهاجا، وتحطمت فيه الأصنام ونكست رءوسها في ذل شديد، وتهللت الكعبة فرحا بشروق يوم التوحيد، إنه يوم الفتح الأعظم، إنه يوم فتح مكة في العاشر من رمضان في السنة الثامنة من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

تعالوا بنا -أحبتي في الله- لنعيش هذه الدقائق المعدودات مع هذا اليوم الكريم المبارك، وأنا أعلم يقينا أن كثيرا من المسلمين لا يعلمون عن هذا اليوم إلا القليل القليل القليل، لماذا؟ لأن أعداء ديننا قد بذلوا كل ما يملكون، ليقطعوا الصلة بين المسلمين وبين تاريخهم المجيد المشرق، وذلك بتشويه حقائق التاريخ من ناحية، وبالحيلولة بين أبناء الأمة وأجيالها وبين حقائق التاريخ من ناحية أخرى، فنشأ جيل في فترة الاستغراب الطويلة الماضية، نشأ جيل لا يعرف عن إسلاميته ولا عن تاريخ فتوحاته ولا بطولاته وأمجاده شيئا، في الوقت الذي يعرف فيه الكثير والكثير عن تاريخ الغرب، فقد تجد كثيرا من المسلمين يعرفون الكثير والكثير عن الثورة الفرنسية، أو عن الثورة البلشفية، ولا يعرفون إلا القليل عن غزوات خير البرية صلى الله عليه وسلم.

فقد ترى الشاب في هذه الأيام قد يعرف نابليون، وقد يعرف إستالين، وقد يعرف غيرهم وغيرهم، وهو لا يعرف شيئا عن صلاح الدين، ولا عن محمد بن مسلمة، ولا عن خالد بن الوليد، ولا عن عمرو بن العاص، ولا عن غيرهم من هؤلاء الأطهار الأبرار الأخيار، فتعالوا بنا -أحبتي في الله- لنعيش مع هذا اليوم، وإني لأرى أنه من الواجب علينا أن نعاود من جديد دراسة تاريخنا الإسلامي، وأن نقف عند حقائقه؛ لأن التاريخ قد شوه وحرف وبدل، وأن نعلم

أولادنا حقيقة وعظمة تاريخنا، وعظمة وبطولات أبطالنا ورجالنا وأطهارنا؛ لينشأ الجيل على سير هؤلاء الأطهار الأبرار، بدل أن يغذى على سير أولئك الأوباش والأنجاس.

نقض قريش لصلح الحديبية

ما هي المقدمات لهذا النصر المبين؟ لقد كان من شروط صلح الحديبية أن من دخل في عقد قريش وعهدهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده دخل، فدخلت قبيلة بني بكر في عهد قريش وعقدهم، ودخلت قبيلة خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده، ولما طالت الهدنة بين الفريقين استغلت قبيلة بني بكر هذه الهدنة، وأرادت أن تنتقم وأن تثأر من قبيلة خزاعة لتحصل لها ثأرا قديما بينها وبينها، فهاجمت قبيلة بني بكر قبيلة خزاعة على ماء لهم يسمى: الوتير، وأعملوا فيهم السيوف، وغدروا بهم، وقتلوا منهم عددا كبيرا.

ولما لم تكن قبيلة خزاعة مستعدة لقتال ولا لحرب، فرت إلى البيت الحرام، ومن المعلوم عندهم أنه من دخل المسجد الحرام رفع عنه السيف، حتى ولو كان قاتلا لأب الذي يحمل السيف وهو يريد أن يقتله، وبالرغم من ذلك لم تراع قريش حرمة للبيت، ولم تراع قبيلة بني بكر حرمة للبيت كذلك، بل وأمدت قريش قبيلة بني بكر بالسلاح، ومنهم من قاتل في صفوف بني بكر مستخفيا بالليل.

ولما جاءت قبيلة بني بكر بقيادة رئيسهم نوفل بن معاوية الديلي، وأرادوا أن يقتحموا المسجد الحرام على خزاعة، قال له بعض العقلاء من قبيلته: يا

نوفل! إنهم دخلوا المسجد الحرام، إلهك إلهك يا نوفل! فقال هذا الرجل قولة خبيثة، قال: لا إله له اليوم، ثم قال لقبيلته بني بكر: فلعمري يا بني بكر إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تأخذون فيه ثأركم؟! ودخلوا عليهم الحرم وقاتلوهم فيه، وهنا انطلق عمرو بن سالم الخزاعي -رئيس قبيلة خزاعة- انطلق إلى المدينة المنورة مسرعا، إلى محمد صلى الله عليه وسلم، حتى دخل المسجد على رسول الله فرأى النبي جالسا بين أصحابه، فوقف عمرو بن سالم الخزاعي على رأس النبي صلى الله عليه وسلم وقال:

يارب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

قد بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا

فانصر هداك الله نصرا أبدا وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البدر يسمو صعدا

يا لها من بلاغة عجيبة! فقال له النبي: (نصرت يا عمرو بن سالم) وإن كان الحديث قد رواه ابن إسحاق في السير بغير سند إلا أن الطبري قد وصله بإسناد ضعيف.

اعتراف قريش بالخطأ وإرسال أبي سفيان إلى المدينة

وأدركت قريش خطأها، نقضت العهد وخفرت الذمة، فلما أدركت الخطأ بعد فوات الأوان، أرسلت أبا سفيان بن حرب -سيد الحرب وقائد الميدان- إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، أرسلته ليعيد للعقد الذي أهدرت كرامته، ليعيد إليه قوته وحرمته، وليعتذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما بدر من قريش، إلا أن الأوان قد فات وانتهى، فذهب أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه النبي شيئا، فترك أبو سفيان الحبيب صلى الله عليه وسلم وذهب إلى أبي بكر ليشفع له عند رسول الله، فقال الصديق: والله ما أنا بفاعل، فترك أبو سفيان أبا بكر وذهب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليشفع له عند رسول الله، فقال عمر: أنا أشفع لكم عند رسول الله! والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به.

فترك أبو سفيان عمر وذهب إلى علي فقال: يا علي! أنت أكثر الناس صلة بي ورحما لي، فاشفع لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال علي: ويحك يا أبا سفيان! والله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، ارجع.

فرجع أبو سفيان يجر أذيال الخيبة والفشل، وعلم يقينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزم على أمر وسوف يباغتهم في مكة في أي لحظة من لحظات الليل أو النهار، وقيد الرعب أم القرى، وعلمت مكة أنها قد أخطأت خطأ كبيرا في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الرسول يأمر بالاستعداد لفتح مكة في سرية تامة

وهنا أمر النبي الناس بالجهاز، وبإعداد العدة للجهاد في سبيل الله وللخروج للغزو، إلا أنه لم يخبر أحدا أين سيكون المسير اليوم، حتى أن الصديق دخل على عائشة رضي الله عنها، فرآها تعد الجهاز لرسول الله، فقال لها: أي بنية! هل أمركن رسول الله بتجهيزه؟ قالت: نعم، فقال الصديق: فإلى أين ترينه يريد، قالت: والله ما أدري.

ولما تجمع الناس واستنفر الرسول الناس جميعا والمسلمين خارج حدود المدينة المنورة، وتجمع في المدينة عشرة آلاف رجل موحد لله جل وعلا عشرة آلاف موحد بقيادة من؟! بقيادة سيد القادة وإمام الهدى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وهنا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم القوم أنه سائر إلى مكة شرفها الله، وأمرهم أمرا جازما أن يكتموا الخبر وأن ينطلقوا في سرية تامة، وبالفعل -أيها الأحباب- انطلق المسلمون ينفذون أوامر النبي صلى الله عليه وسلم بمنتهى الدقة، حتى أنه قد ورد في حديث ضعيف أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الله، وقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها).

قصة حاطب ورسالته إلى مكة

إلا أنه قد وقع حادث عجيب غريب، من صحابي جليل، ممن لهم السبق في جهاد الكفار والمشركين، إنه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ماذا فعل حاطب؟ اسمعوا أيها الأحباب! لتعلموا أن الرجل الكبير قد يقع وقد يمر عليه وقت يصغر فيه، وقد يهلك لولا فضل الله ورحمته، حاطب بن أبي بلتعة

صحابي جليل ممن شهدوا بدرا، وقع في خطأ كبير متأولا، كما قال الحافظ ابن حجر ما هو خطؤه؟ أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس أن يكتموا الخبر، وأن يخرجوا في سرية تامة، ليدخل مكة بدون أدنى قتال، لا يريد أن يسفك دما في بلد الله الحرام، إلا أن حاطبا رضي الله عنه وغفر الله له، قد تطوع بإرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه بخروج رسول الله إليهم، إلا أن من يسمع ويرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، أخبر رسوله بكتاب حاطب، واستدعى النبي على الفور عليا والزبير والمقداد وأخبرهم بخبر كتاب حاطب بن أبي بلتعة، بل وحدد لهم النبي المرأة التي أعطاها حاطب الكتاب لتوصله إلى قريش، نظير مكافأة لها على توصيله، وحدد لهم النبي مكانها على الطريق إلى مكة شرفها الله.

والحديث رواه البخاري ومسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله أنا والزبير والمقداد -أي: المقداد بن الأسود - وقال لنا: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ -اسم المكان الذي سيجدون فيه المرأة- فإن بها ضعينة -والضعينة هي المرأة في الهودج- معها كتاب فخذوه منها، يقول علي: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا -أي: تسابق خيلنا الرياح- حتى وصلنا وأتينا روضة خاخ، فإذا نحن بالضعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب! قالت: ما معي من كتاب! وفي رواية غير رواية الصحيحين: أنهم فتشوا الهودج فلم يجدوا فيه شيئا، فقال علي: والله ما كذب رسول الله، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك من الثياب، فلما رأت المرأة منهم الجد قالت له: أعرض.

يا سبحان الله! فأعرض علي رضي الله عنه، فحلت المرأة قرون رأسها -أي: ضفائر رأسها- فأخرجت من رأسها كتاب حاطب رضي الله عنه، فدفعته إلى علي بن أبي طالب، فانطلقوا مسرعين حتى أتوا به رسول الله في المدينة،

ففتحه فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى بعض الناس في قريش، يخبرهم فيه ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه إليهم.

فاستدعى النبي حاطبا رضي الله عنه وقال: ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله! فوالله ما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإيمان، ولكني ما فعلت ذلك إلا لأنني أردت أن أقدم لي يدا في مكة يحمون بها قرابتي بعد ذلك.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إنه قد صدقكم.

فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: إنه شهد بدرا، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم.

وفي رواية: فذرفت عينا عمر رضي الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم).

وهكذا -أيها الأحباب- غفر لـ حاطب ماضيه المشرف في قتال المشركين والمنافقين، بل وأمر النبي الناس ألا يذكروا حاطبا إلا بما فيه من خير، وهنا تتجلى وتتألق عظمة ورحمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فإنه ما كان قط عونا للشيطان على أصحابه، بل والله ما جاء إلا عونا لهم على الهدى والتقى والجنة.

وهكذا أخذ الله العيون والأخبار؛ فلم يصل خبر إلى قريش، وبدأ الجيش الزاحف يتحرك من المدينة بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

من لطيف ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق مكة

ومن الطرائف العجيبة واللطائف الجميلة التي حدثت للنبي في طريقه ما يلي: لقي النبي في الطريق إلى مكة عمه وابن عمه وابن عمته مسلمين لله جل وعلا، لقيه في الطريق عمه العباس بأهله وعياله مهاجرا مسلما لله جل وعلا، ففرح النبي بعمه العباس فرحا شديدا، ولقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وهو يختلف عن أبي سفيان صخر بن حرب زعيم قريش وقائدهم في غزوة أحد والخندق؛ حتى لا يحدث لبس كما سنرى بعد ذلك لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، ولقيه ابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما النبي عليه الصلاة والسلام لشدة ما لقي منهما من الأذى، ومرير ولاذع الهجاء في مكة المكرمة.

فقالت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك.

إلا أن النبي قد أعرض عنهما صلى الله عليه وسلم، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى علي بن أبي طالب واستشاره ماذا يفعل؟ والله ما جاء إلا مسلما، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه أتدرون ماذا قال علي الذكي العبقري؟ قال له: يا أبا سفيان! اذهب إلى رسول الله من قبل وجهه، من بين يديه، وقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: {تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين}

[يوسف:٩١]

فإن رسول الله لا يقبل أن يكون أحد أحسن منه قولا، وأخذ أبو سفيان النصيحة الغالية من علي رضي الله عنه، وانطلق مسرعا إلى رسول الله بين يديه من قبل وجهه، وقال: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، فنظر إليه النبي قائلا: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) والحديث رواه ابن جرير الطبري، ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الإمام الذهبي، إلا أن الحديث حسن.

وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى مشارف مكة

ووصل النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه الجرار إلى مشارف مكة في وقت العشاء -اسمعوا إلى التكتيك العسكري، اسمعوا إلى هذه الخطط التي كان أول من وضعها أعظم قائد عرفته ميادين القتال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم- فلما وصل النبي إلى مشارف مكة أعاد تنظيم صفوف الجيش، وأمر الجيش أن يوقدوا النيران؛ فأشعلت عشرة آلاف نار على مشارف مكة، ونظم النبي الصفوف مرة أخرى، فأمر خالد بن الوليد أن يدخل إلى مكة من الجنوب، وأمر الأنصار بقيادة سعد بن عبادة أن يدخلوا مكة من جهة الغرب، وأمر المهاجرين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح أن يدخلوا مكة من جهة الشمال، وحدد لهم ملتقى عند جبل هند قبل أن يدخلوا المسجد الحرام؛ لتلتقي الجيوش جميعا مرة أخرى ليترأس القيادة من جديد سيد القادة محمد صلى الله عليه وسلم.

خروج العباس إلى حدود مكة وإسلام أبي سفيان

وخرج العباس يركب بغلة النبي البيضاء، وذهب إلى مشارف وحدود مكة لعله يجد حطابا أو يجد رجلا يذهب إلى قريش ليخرجوا يستأمنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل عليهم مكة عنوة.

يقول العباس عم الحبيب صلى الله عليه وسلم: فسمعت -والله- صوت أبي سفيان وبديل بن ورقاء يتراجعان ويتكلمان وهذا أبو سفيان بن حرب سيد مكة وزعيمهم في أحد والخندق، وهو يختلف عن أبي سفيان بن الحارث الذي ذكرت آنفا.

يقول العباس: سمعت أبا سفيان وبديل بن ورقاء يتراجعان، يقول أبو سفيان: والله ما رأيت نيرانا ولا عسكرا قط مثل هذه أبدا.

فيرد عليه صاحبه بديل بن ورقاء ويقول له: إنها قبيلة خزاعة التي اعتدينا عليها قبل ذلك، إنها خزاعة حمشتها الحرب.

فيقول أبو سفيان الذكي العبقري: لا والله إن خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

إنه رجل حرب ورجل ميدان.

يقول العباس: فعرفت صوت أبي سفيان فقلت: أبا سفيان.

فعرف أبو سفيان صوت العباس فقال: أبا الفضل.

فقال العباس: نعم.

فقال: مالك بأبي أنت وأمي.

فقال له العباس: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجيش، واصباح قريش والله! فقال أبو سفيان: فما العمل فداك أبي وأمي؟! قال: والله لو

أدركك رسول الله ليضربن عنقك، فاركب معي لأستأمن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فركب أبو سفيان بغلة رسول الله خلف العباس وباختصار حتى لا أطيل أسلم أبو سفيان في اليوم التالي، ولكن العباس يعرف نفسية أبي سفيان، فقال: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم.

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن) والحديث صحيح، وفي رواية مسلم: (ومن ألقى سلاحه فهو آمن).

مرور الجيش على أبي سفيان ورجوعه إلى قومه

إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم دبر خطة نفسية بارعة لقائد قريش أبي سفيان، فلما انطلق العباس قال له النبي: (يا عباس، اجعل أبا سفيان في مضيق الوادي حتى يرى جند الله وهي تمر عليه) ففعل العباس ما أمر به، وجعل أبا سفيان في مضيق الوادي، وجعلت القبائل براياتها تمر عليهما، كلما مرت قبيلة برايتها سأل أبو سفيان العباس، حتى مر عليه النبي صلى الله عليه وسلم في قبيلته وفي كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار، وقد غطتهم الدروع لا يرى منهم إلا الأعين، فسأل أبو سفيان وقال: من هؤلاء يا عباس؟ فقال العباس: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار.

فوقع الرعب في قلب أبي سفيان وقال: والله ما لهؤلاء اليوم قبل ولا طاقة.

فقال له العباس: نعم.

فقال أبو سفيان: يا عباس، والله لقد أصبح اليوم ملك ابن أخيك عظيما.

قال: إنها النبوة يا أبا سفيان.

فقال أبو سفيان: نعم.

فقال العباس: النجاة النجاة إلى قومك.

فانطلق أبو سفيان يسابق الريح إلى قومه، وإذا بأهل مكة يرون الجيش الزاحف يقترب رويدا رويدا، وتجمع الفرسان من الشباب والأبطال ينتظرون الأوامر من قادتهم وسادتهم، وإذ بهم يرون قائد القتال وسيد الميدان أبا سفيان يرجع بوجه آخر، فيصرخ فيهم أبو سفيان -وقد نجحت خطة النبي صلى الله عليه وسلم النفسية نجاحا باهرا- فقال: يا معشر قريش! والله لقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ولا طاقة، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فوثبت إليه زوجته هند بنت عتبة آكلة اللحم والكبد، وأمسكت بشارب زوجها وصرخت في قومها وقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمش الساقين، قبحت يا أبا سفيان من طليعة قوم اليوم.

فنظر إليها ولم يلتفت إلى سبابها، فإن الساعة ليست ساعة مراجعة، وقال: لا تغرنكم هذه من أنفسكم، والله لقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ولا طاقة، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

قالوا: قاتلك الله يا أبا سفيان! وما تغني عنا دارك يا رجل؟ قال -وتذكر ما أخبر به النبي-: ومن دخل بيته وأغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، وفي رواية مسلم: ومن ألقى السلاح فهو آمن.

جيش الفتح بقيادة المصطفى يدخل مكة

وانطلق الناس، وخلت مكة من كل أحد إلا في البيوت، وفي بيت الله الحرام، وخلت الشوارع والطرقات، وتقدم الجيش الزاحف بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى دخل النبي مكة، ولما اقترب النبي من المسجد الحرام أحنى رأسه تواضعا وتخشعا وشكرا وذلا لله جل وعلا، ولقد مر بذاكرته شريط طويل من الأحداث إنه اليوم يدخل مكة فاتحا يتذكر يوم أن وضع التراب على رأسه هنا بالأمس القريب، وتذكر يوم أن خنق وكاد أن يموت بين أيديهم بالأمس القريب، وتذكر أصحابه الذين حنت لهم رمال مكة وصخورها لما لاقوا من العذاب الشديد، وتذكر أصحابه الذين بذلوا دماءهم وأرواحهم وقد حرموا اليوم من هذا المشهد الجديد، وتذكر أصحابه وهم يخرجون إلى الحبشة في هجرة متكررة، وتذكر نفسه وهو يخرج إلى الطائف ويرجع وقد أدميت قدماه، وتذكر يوم أن خرج إلى المدينة مهاجرا فارا بدينه، وتذكر يوم أن كان وحده في مكة يقول: لا إله إلا الله، ها هو اليوم يدخل مكة بعشرة آلاف يقولون: لا إله إلا الله.

أي كرامة هذه التي يتوج بها الحبيب في هذا الصباح الميمون؟! أي نعمة هذه التي يمتن الله بها على الحبيب في هذا الصباح الكريم المبارك؟ ويدخل الحبيب المسجد وفي يده قوس، يدخل في وسط كوكبة من

المهاجرين والأنصار، يحيطون به كما تحيط الكواكب بالقمر في ليلة البدر، ويدخل الحبيب وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، وبيد النبي قوس يطعن به هذه الأصنام؛ فتخر الأصنام على وجوهها بين يديه، وهو يتلو قول الله جل وعلا: {جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا}

[الإسراء:٨١]

والحديث رواه البخاري وغيره.

واستدعى النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتح النبي ودخل الكعبة من داخلها، فوجد صورا، ووجد من بين هذه الصور صورة لإبراهيم وإسماعيل وهما يستقسمان بالأزلام، فقال: (قاتلهم الله! والله ما استقسما بالأزلام قط) والحديث رواه البخاري ومسلم فأمر النبي فمحيت الصور، وكسر النبي الأصنام بيده داخل الكعبة، وأغلق عليه باب الكعبة، وعلى أسامة وبلال، وصلى لله بداخل البيت.

النبي صلى الله عليه وسلم يصدر العفو العام عن قريش

وفتح الباب مرة أخرى وخرج فوجد قريشا قد ملأت بيت الله الحرام، ينتظرون ماذا يفعل فيهم اليوم إمام الرحمة وينبوع الحنان صلى الله عليه وسلم.

فخرج إليهم النبي عليه الصلاة والسلام، ونظر إليهم وقد وجمت الأبصار وشخصت، وصمتت الأنفاس، ونظروا إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم، فقال الحبيب: (لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم

الأحزاب وحده، يا معشر قريش! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، كلكم لآدم وآدم من تراب {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير}

[الحجرات:١٣]

ثم قال: يا معشر قريش! ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال الحبيب: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء).

والحديث أخرجه ابن إسحاق وأبو داود وابن ماجة والنسائي والدارقطني، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، ولكن حديثه حسن بالشواهد، ويشهد للحديث حديث أبي هريرة في مسند الإمام أحمد، فالحديث حسن بشواهده إن شاء الله تعالى.

هذه هي رحمة الحبيب صلى الله عليه وسلم اليوم، كما قال سعد بن عبادة حينما مر عليه أبو سفيان، قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل فيه الحرمة، اليوم أذل الله فيه قريشا.

فلما بلغ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا.

اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا).

صلى الله وسلم وبارك على إمام الهدى ونهر الرحمة وينبوع الحنان، وأسأل الله جل وعلا أن يجزيه عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، ورسولا عن دعوته ورسالته، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

بعض ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني

هكذا أعز الله دينه، ونصر عبده، واستنقذ بيته الحرام وبلده الأمين من أيدي الكفار والمشركين.

وفي اليوم التالي وقف صلى الله عليه وسلم خطيبا في قريش، فحمد الله وأثنى عليه ومجده بما هو أهله، ثم قال: (يا معشر الناس! إن مكة حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله لها إلى يوم القيامة، ولا يحل لامرئ أن يسفك فيها دما، فإن ترخص أحد بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وإن حرمتها تعود اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب) والحديث رواه البخاري ومسلم.

ودعا النبي بعد ذلك على الصفا فوقف بعض الأنصار الأطهار الأبرار الأخيار وحزنوا، ودب الرعب والخوف في قلوبهم في يوم الفرح، لماذا؟ لقد خاف الأنصار أن يبقى النبي في مكة ولا يرجع معهم مرة أخرى إلى المدينة، ولما أنهى النبي الدعاء ورآهم يتهامسون، نزل وقال: ماذا تقولون؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله! قال: ماذا تقولون؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله! فما زال النبي بهم حتى أخبروه.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (معاذ الله! بل المحيا محياكم، والممات مماتكم أيها الأنصار) والحديث رواه مسلم وغيره.

بلال يؤذن للصلاة على ظهر الكعبة

أيها الأحباب: ولما حان أول وقت للصلاة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا أن يرتقي على ظهر الكعبة، ذلكم العبد الأسود الذي كان يعذب على رمال

مكة، ويحمل صخورها ملتهبة على صدره بالأمس القريب، هاهو اليوم يرتقي على ظهر الكعبة، وتشخص إليه الأبصار، وتنقطع الأنفاس، وتنحدر الدمعات كحبات اللؤلؤ على وجوه الموحدين، وتبكي الكعبة فرحا لشروق شمس التوحيد الجديدة، ويخشع الجو ويصمد المكان ما هذا؟ هل هذا حلم؟! رسول الله مع عشرة آلاف موحد في مكة، سيروي الموحدون اليوم ظمأهم من ماء زمزم، سيمتع الموحدون اليوم نظرهم بالنظر إلى بيت الله هل هذا حلم؟ كلا! إنها الحقيقة تتألق كتألق الشمس في رابعة النهار.

ويقطع هذه المشاعر المتداخلة صوت ندي رخيم عذب جميل، إنه صوت الحق، صوت بلال بن رباح رضي الله عنه وأرضاه، وهو يرفع صوته بكلمة التوحيد، وبالتكبير لله جل وعلا الله أكبر الله أكبر! الله أكبر الله أكبر! أشهد أن لا إله إلا الله نعم.

فلقد سقطت اليوم كل الآلهة المزعومة المكذوبة، ذهبت وكانت بالأمس القريب تعبد من دون الله، تحطمت اليوم على يد نبي التوحيد صلى الله عليه وسلم، نسأل الله أن يحطم الطواغيت والأصنام على أيدي أبناء الموحدين، إنه ولي ذلك ومولاه.

ولكن تحطمت الأصنام ونكست رءوس هذه الآلهة المكذوبة على يد من؟ من الإمام؟ من القائد؟ من الطليعة الخيرة؟ من الهادي إلى الحق؟ يجيب بلال: أشهد أن محمدا رسول الله، صلى الله وسلم وبارك عليه، ونسأل الله جل وعلا أن يجزيه عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأن يجزي عنا أصحابه الأخيار الأطهار الأبرار الذين أوصلوا إلينا الإسلام على جماجمهم، وعلى أرواحهم وعلى دمائهم وأشلائهم، فنسأل الله أن يقيض للأمة اليوم من يعيد للإسلام مجده، ومن يعيد للإسلام عزه، ومن يعيد للإسلام رايته خفاقة عالية، كما تركها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خفاقة عالية.

وأكتفي بهذا القدر من أحداث فتح مكة، وأسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم أهلا لنصرة الإسلام وعز المسلمين، إنه ولي ذلك ومولاه، وهو على كل شيء قدير.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأعل بفضلك كلمة الحق والدين، اللهم قيض لأمة التوحيد أمر رشد، يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، أنت ولي ذلك والقادر عليه.

اللهم اجعل جمعنا هذا في هذا اليوم الكريم المبارك جمعا مرحوما، وتفرقنا من بعده تفرقا معصوما، ولا تجعل اللهم فينا شقيا ولا محروما، اللهم لا تدع لأحد منا في هذا الجمع الطيب ذنبا إلا غفرته، ولا مريضا بيننا إلا شفيته، ولا دينا على أحد منا إلا أديته، ولا هما إلا فرجته، ولا طائعا إلا ثبته، ولا عاصيا إلا هديته، ولا حاجة هي لك رضى ولنا فيها صلاح إلا قضيتها ويسرتها يا رب العالمين، اللهم تقبل منا صيامنا وقيامنا وصالح أعمالنا، اللهم تقبل منا الصيام والقيام وصالح الأعمال، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

حنين الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم

لما روى الحسن البصري حديث حنين الجذع، لما كان النبي عليه الصلاة والسلام يخطب على جذع النخلة، فلما قالوا له: نصنع لك منبرا، قال: إن شئتم، فخطب على المنبر، قال جابر: (فسمعنا حنينا للجذع كحنين الصبي).

فقال الحسن: (يا معشر المسلمين! أيكون الجذع أشد حنينا للنبي صلى الله عليه وسلم منكم؟) خشبة تكون أكثر حنينا للنبي صلى الله عليه وسلم منكم، وذاك الذي أراد أن يرسل إلى من يحب شيئا، فلم يجد، فبكى وأنشد قائلا: أرسلت دمعي للحبيب هدية ونصيب قلبي من هواه ضلوعه قال اجتهد فيما يلوح بقتلنا قلت ابتهج جهد المقل دموعه ما أستطيع أكثر من هذا.